جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

فن المقدمات والخواتيم

إعــداد

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

عضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾

(سورة طه : ٢٥- ٢٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــــة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين .

وبعـد:

فمن خلال ما قمت به من مناقشة لكثير من الرسائل العلمية ، أو تحكيم للبحوث ، أو قراءة للكتب ، ومن خلال متابعتي لأداء كثير من الخطباء رأيت أننا في حاجة ماسة إلى لفت النظر إلى أهمية العناية بالمقدمات والخواتيم ، ففي الوقت الذي يجيد فيه كثير من الكتاب والباحثين كتابة مقدمات وخواتيم كتبهم وأبحاثهم ، ويجيد كثير من الخطباء إعداد مقدمات خطبهم وخواتيمها ، فإن بعض الباحثين والخطباء لم يعتنوا بمقدمات وخواتيم أعمالهم العناية اللازمة ، وربما لم يدرك بعضهم أهمية مقدمة العمل وخاتمته ، أو لم يدرسوا فن كتابة المقدمات والخواتيم ، مما دفعني إلى محاولة إلقاء الضوء على أهمية هذا الأمر.

وقد قدمت للموضوع بتوطئة عن أهمية المقدمات والخواتيم، متضمنة مقدمة كل من : القصيدة ، والخطبة ، والكتب ، والرسائل العلمية ، ثم عرضت نماذج لبعض المقدمات والتقديمات التي قدمت بها لبعض الكتب ، ونماذج لبعض الخواتيم أو الخلاصات التي اختتمت بها بعض الأعمال العلمية، أو تلك التي نشرت على ظهر بعض الكتب ، لتكون بمثابة تعريف أو تلخيص لمضمونها.

آملًا أن أكون قد لفتُّ بذلك النظر إلى موضوع هام في مجال الكتابة والخطابة وغيرها من فنون القول ، سائلًا الله (عز وجل) أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا السداد والتوفيق.

والله من وراء القصد وهو الموفق والمستعان .

أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

توطئة
أهمية المقدمات والخواتيم

لكل عمل من الأعمال مطلع أو مقدمة أو مستهل ، وخاتمة أو منتهى ينتهي إليه ، شعرًا كان أم نثرًا ، كتابًا كان أم رسالة علمية.

وقد عني الكُتَّاب والدارسون بما أطلقوا عليه براعة الاستهلال ، سواء في القصيدة أم الخطبة أم المقالة أم القصة أم الأقصوصة ؛ لأن المطلع هو أول ما يواجه به الشاعر أو الكاتب أو الخطيب المتلقين لفنه ، وعليه أن ينتقي فيه كلامه انتقاء ، بحيث يجعل منه توطئة علمية ونفسية وأدبية لموضوعه ، فإما أن يجتذب القارئ أو السامع إليه أو يصرفه عنه.

وبالطبع فإن فنيات مقدمة القصيدة غير فنيات مقدمة الخطبة ، غير الكتاب أو البحث أو الرسالة العلمية ، على أن النقاد المتخصصين في جميع الفنون والعلوم يطلبون جودة المطلع وبراعته واتساقه مع ما بعده : شعرًا ، أو خطابة ، أو كتابة علمية أو أدبية.

وإذا كانت مقدمة العمل هي أول ما يطالعك منه ، فيكون دافعًا ومشوقًا لمواصلة التفاعل معه قراءة أو استماعًا ، أو صادًّا لك عنه ؛

فإن خاتمة العمل هي آخر ما يقرع الأذن أو يؤنس العين منه ، فلا ينبغي لعاقل أن يمحو محاسن أوائله بمساوئ أواخره ، فإذا كان قد استطاع أن يجعل من المطلع مفتاحًا للقلوب والآذان والأبصار ؛ فإن عليه أن يجعل من الخاتمة قفلا يحكم به عمله.

مقدمة القصيدة :

أكثر مقدمة أخذت حظًّا وافرًا من الدراسة والنقد ، سواء من جهة كون القصيدة تنتمي للنمط التقليدي الذي غالبًا ما يستهله الشاعر بالغزل أو بكاء الطلل أو بهما معًا ، أم من جهة كونها تنتمي إلى النمط التجديدي أو الحداثي الذي يدخل فيه الشاعر إلى موضوعه مصافحة ويتناوله مكافحة دون تقديم بغزل أو بكاء طلل، أم كان التناول من جهة تناسب أجزاء القصيدة والتوازن بينها ، وكون المقدمة جزءًا لا يتجزأ من نسيج القصيدة نفسيًّا أو موضوعيًّا أو فنيًّا.

وفي مجال الإبداع الشعري نميل إلى إعطاء الشاعر حريته ليعبر عن تجربته بالطريقة التي يراها محققة لمستوى الإبداع الذي يرنو هو – ونرنو نحن معه – إليه.

مقدمة الخطبة:

لا شك أن مقدمة الخطبة تختلف باختلاف موضوعها ، فمقدمة الخطبة الدينية – ولا سيما في الجمع والعيدين – غير مقدمة الخطبة السياسية ، وكلتاهما تختلفان بالطبع عن مقدمات خطب المناسبات الاجتماعية كالتهاني والتعازي ، فحيث لا يُطلب من الخطيب السياسي سوى أن يحسن الاستهلال ، ويراعي ظروف الحال والمقام ومستوى مخاطبيه ؛ فإن الخطبة الدينية تقتضي طبيعتها بدءها بالحمد والثناء على الله (عز وجل) والصلاة والسلام على رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، وأن تدل صراحة أو إيماء على موضوعها ، وأن تكون بمثابة التهيئة أو التوطئة له في يسر وسلاسة وإيجاز.

كما يقتضي مقامها أن تختم بالدعاء ، على أن يكون يسيرًا دون إيجاز مخل أو إطالة مملة ، ويا حبذا لو كان الدعاء أيضًا مشتقًّا من موضوع الخطبة ، متصلا به ، متسقًا معه ، خاتمًا ومتممًا له.

وشاع في العقود الماضية لدى بعض الخطباء الوقوع في تنميط المقدمات والخواتيم ، حيث كان الخطيب يسرد في مقدمة خطبته معظم آيات التقوى في القرآن الكريم لتكون أشبه بالمقدمة الثابتة

لكل خطبة بغض النظر عن موضوعها ، غير مدرك أن الأمر بالتقوى ليس شرطًا أن يكون في المقدمة ، ولا يستوجب بالضرورة سرد جميع آيات التقوى أو معظمها أو بعضها ، فكل أمر بخير هو أمر بالتقوى ، وكل نهي عن شر فهو أمر بالتقوى أيضًا.

وقد تكون لدى بعض الخطباء مجموعة أشعار ثابتة جاهزة مقولبة يحاول أن يستثير من خلالها العواطف بغض النظر عن اتساقها مع الموضوع أو عدم اتساقها معه .

أما في الختام فربما كنت تسمع من بعضهم جمعًا لآيات الدعاء وأحاديثه وما أُثر منه وما لم يؤثر ، بحيث تسمع من هذا الخطيب أو ذاك خطبًا بها مقدمة طويلة ثابتة وخاتمة من الدعاء طويلة ومنمطة ، ولا تكاد تجد بين المقدمة والخاتمة شيئًا جديدًا أو تحليلًا لموضوع أو موقف تحليلًا علميًّا أو فقهيًّا أو دعويًّا سوى عدة جمل لا صلة لها بالمقدمة ولا بالخاتمة.

مقدمة الكتب والرسائل العلمية:

تتطلب البحوث العلمية أن يفصح الباحث في مقدمته عن سبب أو أسباب اختيار موضوعه ، وخطته العلمية ، ومنهجه البحثي

وأهم الدراسات التي سبقت في موضوع بحثه ، والجديد الذي يمكن أن يضيفه البحث في بابه ومجاله ، ثم تأتي الخاتمة لتلخص أهم نتائج البحث وتبرز الجديد فيه.

وإذا كانت مقدمة البحث العلمي هي واجهة الكتاب ، وقد يضطر الباحث إلى كتابة مسودتها كخطة أوليَّـة لبحثه ؛ فإن عليه مراجعتها مرات ومرات قبل تصدير الكتاب بها لتأتي معبرة عنه متسقة مع مضمونه ومحتواه.

أما خاتمة الكتاب أو البحث العلمي فهي بالطبع آخر ما يدونه الكاتب أو الباحث بعد أن يفرغ من بحثه ؛ لذا فإن عليه أن يتأنى في صياغتها غاية التأني ، وكأنه يقول : أنا هنا ، ليبرز أهم ما أنتجه أو أضافه أو انتهى إليه في كتابه أو بحثه العلمي.

ويمكن للناقد الخبير أن يقرر بعد قراءة المقدمة والخاتمة المضي في قراءة الكتاب أو الرسالة أو عدم المضي فيها ، كما يمكنه أن يبني حكمًا ولو أوليًّا عن مستوى الكتاب أو البحث أو الرسالة العلمية.

ومن ثمة فإننا ننصح شباب الكُتَّاب والباحثين أن يجتهدوا غاية الاجتهاد في أن تكون مقدمات وخواتيم بحوثهم معبرة عن

شخصيتهم العلمية من جهة ، وعن مضمون عملهم العلمي من جهة أخرى ، وأن ينأوا في كتابة مقدمات وخواتيم أعمالهم العلمية عن كل ضروب النقل أو الحشو أو التعقيد اللفظي أو المعنوي ، وأن يعبروا فيهما عن خلاصة طرحهم وتناولهم العلمي بما يكشف عن قدراتهم العلمية والإبداعية والمهارية في مجال البحث والتأليف العلمي ، وقدرتهم على إعمال العقل تفكيرًا وإبداعًا ، وعلى صياغة مفاهيمهم بأساليبهم الخاصة التي يمكن أن تصير مع الزمن طابعًا مميزًا لهم وبصمة خاصة بهم.

* * *

المبحث الأول:

مقدمات سلسلة "رؤية"

ويشمل:

خمس مقدمات وخمسة تقديمات
من هذه السلسلة الماتعة.

مقدمة كتابنا
"الجاهلية والصحوة"

إن معركتنا مع الإرهاب والتطرف الفكري لم تنته بعد ، حيث صار استخدام الجماعات المتطرفة أحد أهم أدوات حروب الجيل الرابع ، ولا سيما المسلحة منها التي تتخذ من استحلال الدماء والأموال منهجًا أيديولوجيًّا وواقعيًّا تتقوت منه أو عليه.

وفي سبيل تحقيق أهدافها وأهداف من يدعمها ويمولها عمدت الجماعات المتطرفة إلى المغالطة وليّ أعناق النصوص تارةً ، واجتزائها من سياقها تارةً ، وتحريف الكلم عن مواضعه تارةً أخرى.

وقد لعبت جماعات التطرف الديني على عواطف الشباب من خلال مصطلحات زائفة ، ظاهرها فيه شحذ الهمم ، وباطنها من قبله الفساد والإفساد والضلال والبهتان ، ومن الألفاظ التي حمَّلها المتطرفون ما لا تحتمل : "الجاهلية" و"الصحوة".

أما لفظ الجاهلية فقد حاولت الجماعات المتطرفة إطلاقه على بعض مجتمعاتنا المؤمنة المعاصرة ظلمًا وزورًا ، وهو أمر مردود عليه شكلًا ومضمونًا ، أما من حيث الشكل أو من حيث اللغة

فالجاهلية التي أُطْلقت على الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ليست من الجهل ضد العلم ، ولم يقل أحد : إنها من الجهل نقيض الإيمان أو الإسلام ؛ إنما هي من الجهل نقيض الحلم.

وأما من حيث المضمون ، فمن يقول - مثلًا - عن مصر الأزهر، مصر المساجد والمآذن ، مصر القرآن ، مصر العلم والعلماء ، مصر التي يدرس بأزهرها الشريف نحو مليوني طالب وطالبة ، ويستضيف عشرات الآلاف من الطلاب الوافدين من مختلف دول العالم لدراسة صحيح الدين ، بلد يطوف علماؤه وأئمته مختلف دول العالم لنشر صحيح الدين ، بلد يحتضن القرآن الكريم وأهله ويكرم حفظته إنه مجتمع جاهلي ، لا يمكن أن يقول ذلك إلا حاقد ، أو حاسد ، أو جاحد ، أو مأجور أو مُسْتغل من أعداء الدين والوطن.

وكذلك الحال مع سائر دولنا العربية والإسلامية التي حاول المتطرفون أن يتخذوا من وصفها بالجاهلية وسيلة لإفشالها أو إسقاطها أو هدمها أو تمزيقها.

وأما لفظ (الصحوة) فقد برز كمصطلح تنظيري لجماعة الإخوان الإرهابية ومن سار في ركابها من الجماعات المتطرفة.

والصحوة في منظورهم هي صحوتهم هم ، لكن ضد من ؟ ضد أوطانهم!! قصد إضعافها وتمزيقها وتفكيك بِناها الوطنية؛ لأن هذه الجماعات لا يمكن أن يكون لها وجود ولا أن تحقق أغراضها وأغراض من يمولها ويستخدمها في ظل دولة قوية صلبة متماسكة ، فهي لا تقوم إلا على أنقاض الدول ، ومصلحة الجماعة عندهم فوق مصلحة الدولة ، ومصلحة التنظيم فوق مصلحة الأمة ، وفوق الدنيا وما فيها ، سلاحهم الكذب ، وبث الشائعات ، والزور والبهتان ، وغايتهم الهدم والتخريب ، فهم لا يحسنون سوى الهدم ، أما البناء والعمران فهيهات هيهات ، فضلا عن أنهم لا يؤمنون بوطن ولا بدولة وطنية.

ناهيك عن دعواتهم المتكررة إلى العنف، واستحلال الدماء، واستباحة الأموال والأعراض ، ودعوتهم إلى هدم الأوطان ، يخادعون العامة بمعسول القول ورقيق الكلام ، مردوا على نفاق المجتمع ، واعتبروا ذلك تقية واجبة ولازمًا من لوازم المرحلة ، مما يستوجب منا مزيدًا من الفطنة والحذر ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي

قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}، ويقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : "لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ".

الصحوة الحقيقية هي صحوة الأوطان والأمم ، عندما نعمرها بالبناء والتعمير ، ونرى أمتنا في مصاف الدول المتقدمة في مختلف المجالات والعلوم والفنون.

فمقياس الصحوة الحقيقي هو في مدى تقدم الدول علميًّا واقتصاديًّا ، وامتلاكها أدوات العصر ، وإسهامها في إنجازاته ، فلن يحترم الناس ديننا ما لم نتفوق في أمور دنيانا ، فإن تفوقنا في أمور دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا.

الصحوة الحقيقية أيضًا هي صحوة الضمير ، والقيم والأخلاق ، عندما نُعمر الدنيا بالتسامح ، والتراحم ، والتكافل ، والصدق ، والأمانة ، والوفاء ، ومكارم الأخلاق ، وترجمة أخلاق الإسلام وقيمه وتعاليمه السمحة إلى واقع ملموس في دنيا الناس ، في سلوكنا وسائر شئون حياتنا ، فالأمم التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأساس قيامها.

الصحوة الحقيقية هي قوة انتماء الإنسان لوطنه ، وحرصه على أمنه واستقراره ، فالوطن عِرض وشرف ، وهو أحد الكليات الست التي حرص الشرع الحنيف على إحاطتها بسياجات متعددة من الحفظ والرعاية .

كما أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية مطلب شرعي ووطني ، فكل ما يؤدي إلى ذلك هو من صحيح معتقدنا ، وكل ما يؤدي إلى الهدم والتخريب وتقويض بنيان الدول أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بِناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، لا علاقة له بالأديان، ولا بالقيم ، ولا بالوطنية ، ولا بالإنسانية.

مع تأكيدنا أن الدين الحقيقي النقي لا يحيا في الهواء الطلق ، إذ لا بد له من دولة قوية تحمله وتحميه ، ذلك أن المشردين لا يقيمون دينًا ولا دولة.

الدين والدولة لا يتناقضان أبدًا ، الدين والدولة يتعاضدان في سبيل سعادة البشرية ، فحيث تكون مصالح البلاد والعباد والأوطان المعتبرة فثمة شرع الله.

الدين والدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق

والواجبات ، وأن نعمل معًا لخير بلادنا وخير الناس أجمعين ، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا ، الأديان رحمة، الأديان سماحة ، الأديان إنسانية ، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي ، وأن لا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج ولا مكروب إلا سعينا في قضاء حاجته وتفريج كربه.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج ، والتميز والإتقان ، ويطاردان البطالة والكسل ، والإرهاب والإهمال ، والفساد والإفساد ، والتدمير والتخريب ، وإثارة القلاقل والفتن ، والعَمالة والخيانة .

وإن من يتوهمون صراعًا - لا يجب أن يكون - بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتمًا إما أنهم لا يفهمون الأديان فهمًا صحيحًا ، أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًّا ، أو لا يعون طبيعة العلاقة بينهما ، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة ، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعة العلاقة بينهما.

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها ، وإعلاء دولة القانون، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيا كان مصدر هذه السلطات ، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى ، وهو لواء الدولة الوطنية ، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه أمر الدين ولا أمر الدولة.

وختامًا : أؤكد أن كل التنظيمات المتطرفة ولا سيما المتدثرة منها بغطاء الدين هي خطر داهم على الدين والدولة ، وأن الصحوة الحقيقية تتطلب منا التفرقة بوضوح بين الثابت والمتغير، والنظر بعين الاعتبار في مستجدات العصر ومتطلباته، ومراعاة ما يقتضيه فقه الواقع ، وفقه الأولويات ، وفقه المتاح في ضوء الحفاظ على ثوابت الشرع الحنيف.

* * *

مقدمة كتابنا
"العقل والنص"

إن كثيرًا من الإشكاليات الفكرية نشأت عن غلبة مناهج الحفظ والتلقين على مناهج الفهم والمناقشة والتحليل ، حيث تصدرت قضايا الأحكام الجزئية المناهج التعليمية والبحثية ، على حساب الاهتمام بالقواعد الكلية – الفقهية والأصولية– ومناهج التفكير العقلي والمنطقي ، مما جعلنا نؤكد ونلح في التناول والتأكيد على أنه لا غنى عن إعمال العقل في فهم صحيح النص وفي تطبيقاته ، وفي إنزال الحكم الشرعي على مناطه من الواقع العملي ، وأنه لا بد من إعادة قراءة النص في ضوء مستجدات العصر ومعطيات ومتطلبات ما يقتضيه فقه بناء الدول ، فتناول القضايا الفقهية والشرعية يحتاج إلى تأهيل خاص وإعداد علمي وشرعي ولغوي مبكر يسهم في صنع وصقل موهبة الفقيه والمفتي ، مما يتطلب التحصن بأدوات كثيرة ، في مقدمتها : دراسة العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم ، إذ لا يمكن أن تُطلَق على إنسان صفة فقيهٍ أو مفتٍ وهو لا يعرف الناسخ من المنسوخ ، ولا المطلق من المقيد ، ولا

المجمل من المفصَّل ، ولا المحكم من المتشابه ، ولا العلاقة بين اللفظ والسبب ، أو العموم والخصوص ، ودقائق وأسرار هذه المصطلحات.

كما ينبغي أن يكون الفقيه عالمًا بسنة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودرجة الحكم على الأحاديث ومراتبها ، وما ينبغي أن يُقدَّم من الترجيح أو التوفيق عند تعارض ظواهر بعض ألفاظها ، فكيف بمن لا يميز بين الثابت والمتغير ، أو سنن العبادات من أعمال العادات؟!.

وينبغي على الفقيه – أيضًا – الإلمام بأحوال عصره ، وواقع الناس وعاداتهم وتقاليدهم ، وقوانين الدول ودساتيرها ، والمواثيق والعهود الدولية ومتطلباتها ، ليكون قادرًا على إنزال الفتوى على مظانها وظروف عصرها لا على مظان وظروف عصور أخرى تغير بعدها الحال والزمان ودنيا الناس.

وينبغي أن يتسع أفقنا لفهم النصوص وإسقاطها على الواقع ، فعندما نتحدث عن الصدق ونطلب من الأفراد التحلي به فإننا نطلب – أيضًا – من الدول أن تتحلى به ، فالدول الصادقة هي التي

تفي بعهودها ومواثيقها والتزاماتها الدولية، أما الدول التي لا تفي بعهود ولا مواثيق ، ولا تقيم شأنًا للقيم والأخلاق فمآلها السقوط والاندثار ، يقول الشاعر :

إنما الأمم الأخــلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وعندما نتحدث عن حق الجوار فإننا يجب ألا ننسى حق الجوار الدولي ، فكما أن الإنسان الشريف لا يؤذي جاره ، ولا يسمح أن يُؤْذَى جاره من قِبَلِه ، فكذلك الدول العظيمة تحترم حق الجوار ، ولا تسمح بأن تؤتى جاراتها عبر حدودها ، أو أن تكون هي طريقًا لتسرب المتطرفين إلى أي منها.

وعندما نتحدث عن آداب الاستئذان ينبغي أن ننظر إليه بصفة أعم من الاستئذان لدخول منزل شخص ما فحسب ، فحرمة الدول كحرمة البيوت وأشد ، وكما لا يجوز أن تَدْخُلَ بيت أحد إلا بإذنه ، فإنه لا يجوز أن تدخل دولة دون الإذن القانوني المعتبر لدخولها.

وعندما نتحدث عن القصد في المشي حيث يقول الحق سبحانه :

{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}، فإننا نعني القصد في المشي وعدم الاختيال مطلقًا ، سواء أكان الإنسان ماشيًا على قدميه أم مستقلا دراجته أم راكبًا سيارته ، بل إن الاختيال بالسيارة أشد جرمًا من الاختيال بالمشي على القدمين ؛ لما في الثاني من كسر نفوس الفقراء ، وأسوأ من ذلك أن يصل الاستعلاء بالنفس إلى تجاوز قواعد السير وقوانين المرور التي تنظم عملية السير في الطريق حفاظًا على الأنفس والأموال وسلاسة الحركة.

فالغاية والمقصد إنما هو النهي عن التكبر على خلق الله والاستعلاء عليهم بأي نوع من أنواع الاستعلاء ، والمشي في الآية هنا ليس مقصودًا به المشي على القدمين فقط ، وإنما المقصود به النهي عن مطلق الاختيال والعجب والغرور بالنفس ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا }.

وهكذا نُعمل العقل في فهم مقاصد النص بما ييسر للناس أمور حياتهم ، وتنصلح به أحوال معاشهم ومعادهم ، مع الحفاظ على

ثوابت الشرع الحنيف وعدم المساس بها ، والتفرقة بوضوح بين المقدس وغير المقدس ، وبين الثابت والمتغير ، فإنزال الثابت منزلة المتغير هدم للثوابت ، وإنزال المتغير منزلة الثابت عين الجمود والتحجر والتخلف عن ركب الحضارة والإنسانية.

ونعرض في هذا الكتاب عددًا من الموضوعات والقضايا الهامة مثل : الضيق والسعة بين العلماء والجهلاء ، والبصيرة في الدعوة والفتوى ، وحق الجوار الدولي ، وصناعة الوعي ، وأسباب رفع البلاء ، وأبجديات الحوار ، وغيرها.

* * *

مقدمة كتابنا
"فقه الدولة وفقه الجماعة"

شتان بين فقه الدول ، والوعي بالتحديات التي تواجهها ، وسبل الحفاظ عليها ، وحتمية ومشروعية الدفاع عنها ، والذود عن حياضها ، والتضحية في سبيلها ، وبين نفعية الجماعة القائمة في الغالب الأعم على محاولات إضعاف الدولة ، قصد الإيقاع بنظامها وإحلال الجماعة محله ، حتى لو أدى ذلك إلى إسقاط الدولة أو محوها من خارطة العالم بتفكيكها إلى كيانات صغيرة لا تنفع ولا تضر ، أو حتى بشطبها نهائيًّا من عالم الوجود كدولة بتمزيق أوصالها وابتلاع دول أو قوى أخرى لها.

وتنظر الجماعات المتطرفة إلى كل ما يقوي الدولة على أنه في غير صالحها ، وإلى كل ما يضعف الدولة على أنه يصب بالطبع في مصلحتها ويقرب أمانيها ، إذ لا يمكن لأي جماعة من الجماعات المتطرفة أن تقفز على السلطة أو تجهز عليها إلا في الدول الضعيفة المنهارة المفككة المترهلة ، فهذه الجماعات تعمل وفق استراتيجية ممنهجة تهدف إلى إحداث نوع من القطيعة بين الشعوب وحكامها ،

أو قل : إنها تعمل جاهدة على شيطنة أي نظام حاكم حتى لو كان على طريق سيدنا عمر بن الخطاب نفسه، وتزعم أنها حامية حمى الدين، محرفة الكلم عن مواضعه، لاوية أعناق النصوص ، وهو ما حذرنا منه نبينا (صلى الله عليه وسلم) ودعانا إلى مواجهته وبيان زيغه وزيفه ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ" (رواه البيهقي).

على أن الشرع الحنيف قد حثنا على إكرام الحاكم العادل ، والوقوف إلى جانبه ، وإعانته ، والالتفاف حوله ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ الله: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ" (سنن أبي داود).

غير أن هذه الجماعات المتطرفة – إضافة إلى تحريفها الكلم عن مواضعه – قد أصيبت أفكار وعقول أكثر قياداتها بالشطط أو الجمود والتحجر ، ناهيك عما أصاب عناصرها والمنتمين إليها من ضيق الأفق والجمود عند ظواهر بعض النصوص ، بل عند أقوال

بعض المتقدمين من العلماء أو الفقهاء أو حتى الآراء والأقوال غير المدققة ، منزلين هذه الأقوال منزلة النص المقدس ، فهم ينزلون المستجدات والمتغيرات القابلة للاجتهاد والرأي والرأي الآخر منزلة الثابت المقدس ، ويرون ذلك الدين الخالص والمعدن النقي الصافي ، في جهالة وضلالة عمياوين ، ولا سيما أن لهم رءوسًا جهالًا يتكسبون بجهلهم وجمودهم ويدافعون عنه دفاعًا مستميتًا ، وهذا ما نبهنا إليه نبينا (صلى الله عليه وسلم) بقوله : "إِنَّ الله لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا، فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"(رواه البخاري).

لقد جرَّ ظهور جماعات التطرف الديني على منطقتنا العربية وعلى كثير من الدول الإسلامية ويلاتٍ كثيرة ، وبخاصة بعد أن بدت ظاهرة التكسب بالدين أو المتاجرة به واضحة لدى كثير من الحركات والجماعات التي عملت على توظيف الدين لتشويه خصومها من جهة ، وتحقيق مطامعها السلطوية من جهة أخرى ، فصارت محاربة الإسلام تهمة الجماعات المتطرفة لكل خصومها السياسيين.

ناهيك عن تجاوز ذلك إلى تهم التخوين والتكفير والإخراج من جماعة المسلمين ، بل الحكم على المخالفين بأن أحدًا منهم لن يجد رائحة الجنة ، مع استباحة دمائهم وأموالهم وسبي نسائهم ، وبدا خلط الأوراق واضحًا جليًّا عن عمد لا عن غفلة لدى أكثر هذه الجماعات ، بل إن الأمر قد ذهب إلى أبعد من هذا عندما نصّبت هذه الأحزاب والحركات والجماعات نفسها وصيًّا على الدين ، مع فقدان كوادرها للتفقه الصحيح فيه ، أو حتى مجرد الإلمام بأصوله وأحكامه ، وخروج بعضهم علينا بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ، اللهم إلا سلطان النفعية والهوى والسلطة وحب الظهور أحيانًا.

لقد أعطى هؤلاء المتسترون بالإسلام المنتسبون زورًا إليه الذرائع أكثر من مرة لأعداء الأمة للتدخل في شئونها تحت ذرائع متعددة ، المعلن منها مواجهة الإرهاب ، وغير المعلن هو إضعاف دولنا أو تفتيتها أو تفكيكها أو السيطرة على مقدراتها الاقتصادية أو الجغرافية أو القرار السياسي أو الوطني فيها ، ثم خرجت من عباءة هذه الجماعات والحركات والأحزاب جماعات بائسة يائسة أخذت

تتبنى العنف والإرهاب والتكفير والتفجير والعمليات الانتحارية مسلكًا ومنهجًا ، ووجدت بعض قوى الاستعباد المسمى الاستعمار الجديد في هذه الجماعات اليائسة من التكفيريين والانتحاريين ضالتها ، فتعهدتها ونمتها وغذتها وأمدتها بالمال والسلاح ، لتحقيق مآربها في تفتيت كيان المنطقة العربية والاستيلاء على خيراتها ومقدراتها من جهة ، وتشويه صورة الإسلام وربطه بالإرهاب من جهة أخرى.

فبعد أن كان المسلمون هم رسل السلام إلى العالم أخذت صورتهم تُسوّق على أنها رديف الإرهاب والقتل والدمار ، وتنامت ظاهرة "الإسلاموفوبيا" ، والتقطتها جهات ومؤسسات حاقدة على الإسلام والمسلمين فغذتها ونمتها ، وكلما خمدت نارها نفخوا في رمادها لتظل مشتعلة سيفًا مسلطًا على رقابنا.

ولا يمكن لعاقل أو وطني أو فاهم لدينه فهمًا صحيحًا أن ينكر أن حصاد دعوة هذه الجماعات المتطرفة المتدثرة ظلمًا وزورًا وزيفًا بعباءة الدين كان حصادًا مرًّا شديد المرارة ، فقد زرعوا أشواكًا ، فجَنَينا حنظلًا وعلقمًا ، وصار لزامًا علينا بذل أقصى الجهد لإصلاح ما أفسدته هذه الجماعات الضالة المارقة.

كما صار لزامًا وواجبًا متعينًا على أهل العلم المتخصصين الفاهمين الواعين الوطنيين أن يضاعفوا الجهد ، لنفي انتحال المبطلين ، وتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، لا تأخذهم في ذلك لومة لائم.

وقد اجتهدت أن أصحح في ثنايا هذا الكتاب - فقه الدولة وفقه الجماعة - كثيرًا من المفاهيم الخاطئة حول بناء الدولة ، وأن ألقي الضوء على أهمية الحفاظ عليها ، مبينًا ومؤكدًا أن مصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان ، محذرًا من الكيانات الموازية داخل الدول التي تنازع الدولة سلطاتها والمؤسسات اختصاصاتها ، مفرقًا بين التعددية السياسية المطلوبة والكيانات الموازية الخطرة ، كما فرقت بين المصلحة في منظور الدولة وفوضى الجماعة ، ونبهت إلى خطورة السقوط الاقتصادي للدول ، وإلى ضرورة اهتمام الدول بحدودها ، وبوحدتها الوطنية وتحقيق المواطنة المتكافئة بين أبنائها دون تمييز على أساس الدين أو اللون أو الجنس أو العرق.

* * *

مقدمة كتابنا
" الكليات الست "

في إطار مشروعنا التجديدي - المبني على وضع الأمور في نصابها من حيث التفرقة بين الثابت والمتغير ، ورفع القداسة عن غير المقدس من الأشخاص والآراء البشرية، وقصر التقديس على الذات الإلهية وعلى كتاب الله (عز وجل) وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، من خلال القراءة العصرية للنصوص ، تلك القراءة الرامية إلى الخروج من دوائر الحفظ والتلقين والتقليد إلى فضاءات الفهم والتفكير ، والتأمل والتدبر ، والاجتهاد في ضوء مقتضيات الواقع ومستجداته - تأتي هذه القراءة للمقاصد العامة الضرورية المعبر عنها بالكليات أو المقاصد الكلية.

وقد نبعت فكرة هذا الكتاب وتبلورت من شدة اهتمامي بقضية الدولة الوطنية وبيان مشروعيتها ، وما وصل إليه حال بعض الجماعات المتطرفة المنكرة لفضل الوطن عليها ، والتي حاولت وضع الناس في تقابلية خاطئة بين الدين والدولة ، فإما أن تكون - في منظورهم - مع الدين أو مع الدولة وكأنهما نقيضان ، مع أن

الدين لا يَنشأ ولا يحُمى ولا يُحفظ في الهواء الطلق ، إنما لا بد له من دولة تحميه وترفع لواءه عاليا ، وقد قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد : رجالهم ونسائهم ، كبيرهم وصغيرهم ، قويهم وضعيفهم ، مسلحهم وأعزلهم ، كل وفق استطاعته ومكنته ، حتى لو فنوا جميعًا ، ولو لم يكن الدفاع عن الديار والأوطان مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم .

وقد نظرت في أمر هذه الكليات من حيث عددها وترتيبها فرأيت أنها ليست قرآنا ولا سنة ، إنما هي آراء واجتهادات في ضوء رؤية العلماء والمجتهدين لما يجب الحفاظ عليه باعتباره أمرًا ضروريًّا.

وبما أن الحفاظ على الوطن وعلى بناء الدولة وكيانها لا يقل أهمية عما ذكره العلماء من الكليات الأخرى ، إذ لا يوجد عاقل ولا وطني شريف لا يكون على استعداد لأن يفتدي وطنه بنفسه وماله ، فإننا نرى ضرورة إدراج حفظ الأوطان في عداد هذه الكليات ، ولا

سيما في زماننا هذا ، حيث تتعرض أوطاننا للاستهداف ومحاولات التفكيك ، مما يجعلنا نقرر وباطمئنان أن الكليات ينبغي أن تكون ستًّا، هي: الدين، والوطن ، والنفس ، والعقل ، والمال ، و"النسل والنسب والعرض".

وقد عنيت في هذه الدراسة بالرؤية العامة للمقاصد وما ينبغي أن يندرج تحتها من الأمور الكلية ، فالحفاظ على الدين مقصوده الأسمى الحفاظ على أصل الدين ومقاصده ، أما عند التفصيل فقد يتقدم حفظ النفس على التمسك ببعض الفروع ، فللإنسان المضطر أن يأكل من الميتة المحرمة شرعًا ما يحفظ به أصل النفس ، كما أن الإنسان الوطني صاحب الدين قد يقتضي الأمر افتداءه لوطنه بنفسه وماله ، وعليه أن يلبي نداء وطنه دينًا ووطنية ، كما أن الإنسان الحر الكريم قد يذود عن عرضه بنفسه وماله ، وقد يذود عن ماله بنفسه ، وفي الحديث الشريف: (منْ قُتِل دُونَ مالِهِ فهُو شَهيدٌ ، ومنْ قُتلَ دُونَ دمِهِ فهُو شهيدٌ ، وَمَنْ قُتِل دُونَ دِينِهِ فَهو شهيدٌ ، ومنْ قُتِل دُونَ أهْلِهِ فهُو شهيدٌ).

وقد يُحتمل الأذى اليسير لدفع الضرر الكبير، فقد يتسامح الإنسان في حق ماله أو جزء منه حفاظًا على نفسه ، وقد يظهر مضطرًّا خلاف ما يبطن حفاظًا على النفس أيضًا ، كمن أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان ، وكما قرر الفقهاء والأصوليون أن المفسدة اليسيرة قد تحتمل لتحقيق مصلحة كبيرة ، ولا تدفع المفسدة اليسيرة بتضييع المصلحة الكبيرة ، مما جعلني أركز حديثي على المقاصد الكلية العامة ، تاركًا الحكم على الفرعيات وترتيب أولوياتها لبحث كل مسألة على حدة في ضوء مقتضيات الأحوال والزمان والمكان، وما يقتضيه أو يحتِّمُه ويستوجبه فقه الواقع والمآل، إذ لم يكن مقصدنا من البحث حصر ما يتعلق به من الجزئيات والفرعيات ، إنما كان المقصد هو الرؤية العامة ، وإلقاء الضوء على المقاصد الكلية ، وفتح ساحات وآفاق أوسع أمام الاجتهاد والتفكير ، ومراعاة مقتضيات العصر في رؤية شديدة الوضوح لما هو ثابت مقدس ينبغي الحفاظ عليه ، وما هو متغير وغير مقدس قابل للاجتهاد وإعادة النظر ، سائلًا الله (عز وجل) أن أكون قد وفقت فيما قصدت.

* * *

مقدمة كتابنا
" بناء الوعي"

تشكيل وعي أمة أو بناء ذاكرتها ليس أمرًا سهلا ولا يسيرًا، ولا يتم بين لحظة وأخرى أو بين عشية وضحاها، إنما هو عملية شاقة ومركبة، وأصعب منه إعادة بناء هذه الذاكرة أو ردها إلى ما عسى أن تكون قد فقدته من مرتكزاتها، فما بالكم لو كانت هذه الذاكرة قد تعرضت للتشويه أو محاولات الطمس أو المحو أو الاختطاف ، ولا سيما لو كان ذلك قد استمر لعقود أو لقرون؟!

لقد تعرضت ذاكرة الأمة عبر تاريخها الطويل لمحاولات عديدة من المحو أو الشطب أو التغيير، ناهيك عن محاولات الاختطاف وحالات الخمول والجمود ، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى استرداد هذه الذاكرة من خلال إعادة تنشيطها وتخليصها مما علق بها من شوائب في مراحل الاختطاف والتشويه جراء محاولات المحو أو الشطب أو التغييب ، التي قام بها أعداء الأمة ومن وظفوه لخدمتهم من جماعات التطرف والإرهاب.

وإذا كان من حاولـوا السطـو على ذاكـرة أمتنـا قــد استخدموا

المغالطات الدينية والفكرية والثقافية والتاريخية للاستيلاء على هذه الذاكرة فإن واجبنا مسابقة الزمن لكشف هذه المغالطات وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان أوجه الحق والصواب بالحجة والبرهان من خلال نشر الفكر الوسطي المستنير، في المجال الدعوي والثقافي والتعليمي والتربوي والإعلامي، وإحلال مناهج الفهم والتفكير والإبداع والابتكار محل مناهج الحفظ والتلقين والتقليد، مع اعتبار العمل على خلق حالة من الوعي المستنير واسترداد ذاكرة الأمة التي كانت مختطفة أولوية لدى العلماء والمفكرين والمثقفين وقادة الرأي والفكر .

على أن بناء الوعي يتطلب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا لأننا دون إدراك هذه التحديات ودون الوعي بها لا يمكن أن نضع حلولًا ناجحة أو ناجعة لها، وإذا كان المناطقة يؤكدون أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإن معالجته أو مواجهة ما يرتبط به من تحديات لا يمكن أن تتم دون سبر أغوار وأعماق هذا التصور.

وإسهامًا منا في ذلك يأتي هذا الكتاب "بناء الوعي" ملقيًا

الضوء على عدد من الموضوعات الهادفة إلى خلق حالة من الوعي بالواقع، والوعي بالتحديات ، ومحاولة الإسهام في حلها أو فك شفرتها، أملًا في الخروج من حالة التشظي والتأزم الفكري إلى حالة من الرشاد الفكري والديناميكية الفكرية التي تعمل على بناء الذاكرة وبناء الأمة معًا .

وقد تناولت في هذا الكتاب عددًا من الموضوعات والقضايا الحيوية : دينية ، ووطنية ، وثقافية ، ومجتمعية ، مثل: إرادة التغيير، والوعي بالقضية السكانية ، والوعي المائي ، والوعي بخطورة المخدرات والإدمان، والوعي بمخاطر الإلحاد، وأهمية العمق الأفريقي، وفقه المواطنة، وبناء الدول، وحماية الأوطان، وحروب الجيل الخامس، وتفكيك حواضن الإرهاب، وخطورة الشائعات، والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات، والميثاق الغليظ ، وفقه الحياة السياسية ، وغيرها من الموضوعات.

كما يهدف إلى الإسهام في تشكيل وعي الأمة واسترداد ذاكرتها الرشيدة من خلال إعادة تنشيطها وتخليصها مما علق بها من شوائب في مراحل الاختطاف والتشويه جراء محاولات المحو أو الشطب أو

التغييب ، التي قام بها أعداء الأمة ومن وظفوه لخدمتهم من جماعات التطرف والإرهاب.

وإنني لأؤمل أن يسهم هذا الكتاب – مع غيره من المحاولات الجادة لكل المهمومين بهَمِّ الأمة من السياسيين والكُتَّاب ، والمفكرين ، والمثقفين ، والإعلاميين ، والمعلمين ، والتربويين الوطنيين- في إعادة بناء الذاكرة الواعية لمجتمعنا وأمتنا.

* * *

تقديمنا لكتاب
" قواعد الفقه الكلية"(*)

لقد غلبت لعقود طويلة وربما لقرون عديدة قضايا التقليد على قضايا الإبداع والتجديد ، وغلبت مناهج الحفظ والتلقين ، وطغت على مناهج الفهم والتفكير ، مما نتج عنه تقديس أو ما يشبه التقديس لغير المقدس من الآراء والأفكار والشروح المتعلقة بالأحكام الجزئية والفتاوى القابلة للتغير بتغير الزمان أو المكان أو أحوال الناس وأعرافهم وعاداتهم وواقع حياتهم مما لم يرد فيه نص قاطع ثبوتًا ودلالة ، فما كان راجحًا في عصر معين أو بيئة معينة أو حالة أو أحوال معينة قد يصبح مرجوحًا إذا تغير من ظروف

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من: أ.د/ شوقي علام مفتي الجمهورية ، وأ.د/ محمد عبد الستار الجبالي رئيس قسم الفقه بكلية الدراسات العليا ، وأ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر، وأ.د/ رمضان محمد عيد هتيمي عميد كلية الشريعة والقانون الأسبق بجامعة الأزهر ، ود/ هاني سيد تمام أستاذ الفقه المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، ود/ ياسر أحمد مرسي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة ، مع مشاركتنا وتقديمنا له .

العصر أو المكان أو الحال ما يستدعي إعادة النظر في الحكم أو الفتوى ، وقد يصبح الرأي المفْتَى به غيره أولى منه في الإفتاء به نتيجة لتغير هذه المعطيات.

وقد أدى الاعتماد على حفظ بعض الأحكام الفقهية الجزئية مع ضعف الاهتمام بالقواعد الكلية ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وأصول الاستنباط ، إلى حالة من التعصب الشديد لدى بعض المقلدين من جهة ، وضيق الأفق والجمود والتحجر عند الرأي المحفوظ لدى بعضهم من جهة أخرى ، إضافة إلى أن حصر الجزئيات والإحاطة بها أمر شبه مستحيل إن لم يكن مستحيلًا ، ناهيك عن مستجدات الأمور ومستحدثاتها ، لذا يجب أن نعود وبقوة إلى ما يرسخ مناهج الفهم والتفكير وإعمال العقل من خلال دراسة علم أصول الفقه ، وقواعد الفقه الكلية ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وفقه الواقع ، مؤكدين أن الأحكام الفقهية الجزئية المستنبطة من خلال اجتهاد المجتهدين في قراءة النصوص في ضوء القواعد الكلية والأصولية وفهم مقاصد النصوص ومراميها ليست قرآنًا ، وأن بعضها قابل للتغيير وفق مقتضيات الزمان

والمكان والأحوال والأشخاص ، وقابل للرأي والرأي الآخر ، فالأقوال الراجحة ليست معصومة ، والأقوال المرجوحة ليست مهدومة ، طالما أن القائل بها من أهل الاختصاص والاجتهاد والنظر في ضوء الدليل الشرعي المعتبر والمقاصد العامة للشريعة، وهو ما أكده علماؤنا الأوائل ، يقول الإمام الشاطبي (رحمه الله) : إن الأصل في العادات الالتفات إلى المعاني ، وبالاستقراء وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد ، والأحكام العادية تدور عليها حيثما دارت ، فترى الشيء الواحد يُمنَع في حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز .

ويقرر الإمام القرافي (رحمه الله) : أن إِجراءَ الأحكام التي مُدْرَكُها العوائدُ مع تغيُّرِ تلك العوائد خلافُ الإِجماع وجهالةٌ في الدّين ، ويقول : بل لو خرجنا نحن من ذلك البلد إِلى بلَدٍ آخر عوائدُهم على خلافِ عادةِ البلد الذي كنا فيه أفتيناهم بعادةِ بلدهم، ولم نعتبر عادةَ البلد الذي كنا فيه، وكذلك إِذا قَدِمَ علينا أحدٌ من بلدٍ عادَتُه مُضَادَّةٌ للبلد الذي نحن فيه لم نُفتِه إِلَّا بعادةِ بلدِه دون عادةِ بلدنا.

ويقول ابن القيم (رحمه الله) : ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم فقد ضلَّ وأضل .

ويقول ابن عابدين (رحمه الله) : إن المسائل الفقهية إما أن تكون ثابتة بصريح النص وإما أن تكون ثابتة بضرب من الاجتهاد والرأي ، وكثير منها يبنيه المجتهد على ما كان في عرف زمانه بحيث لو كان في زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قاله أولًا ، ولهذا قالوا في شروط الاجتهاد : إنه لا بد من معرفة عادات الناس ، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله .

ومن ثمة علينا أن نفرق بين الثابت والمتغير ، وبين ما هو من شئون العقائد والمعاملات ، وما هو من شئون نظام الدولة ، فإن تنزيل أي منها منزلة الآخر خلل في الفهم وضرب من الجهل ، كما يجب أن نفرق بين ما هو من شئون الأفراد ، وما هو من شئون الدول ، ومن له الحق في الفتوى أو التصرف فيما يتصل بشئون الدول ، ولهذا أكدنا أن إعلان التعبئة العامة للدفاع عن حدود الدولة وكيانها المعبر عنه في كتب التراث بإعلان الجهاد هو من

اختصاص ولي الأمر ، وليس من اختصاص آحاد الناس أو جماعة منهم ، كما أكدنا أيضًا أنه ليس لآحاد الناس أو عامتهم الحكم على أحد بالكفر أو الخروج من الملة ، وإنما يثبت ذلك بحكم قضائي نهائي وبات ، لخطورة ما يترتب على الحكم بالتكفير والإخراج من الدين ، وللعلماء بيان ما يترتب على الفعل لا الحكم على الأشخاص، مما يتطلب التفرقة بين تكفير غيرِ المعين وتكفير المعين ، فالأول الأمر فيه للعلماء والآخر الحكم فيه للقضاء.

وعلينا أن ندرك أن رأي الحاكم "المتمثل في الدستور والقانون" يحسم الخلاف في الأمور المتغيرة التي تحتمل الرأي والرأي الآخر في ضوء تحقيق المصلحة المعتبرة شرعًا.

كما أن علينا أن نعمل على نشر ثقافة التفكير في سائر جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، والخروج من دائرة القوالب الجاهزة والأنماط الجامدة إلى رؤية تتسم بالفكر وإعمال العقل، وأن نعمل على تحريك هذا الجمود من خلال العمل على نشر ثقافة التفكير وإعمال العقل ومراعاة مقتضيات الواقع ، غير أن هناك من يعتبر مجرد التفكير في التجديد خروجًا على

الثوابت وهدمًا لها ، حتى وإن لم يكن للأمر المجتهَد فيه أدنى صلة بالثوابت ، أو بما هو معلوم من الدين بالضرورة وما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فقد تبنى منهج الجمود والتكفير والإخراج من الدين أناس لا علم لهم ولا فقه ، ولا هم من أهل العلم أو أهل الاختصاص أو حتى دارسي العلوم الشرعية من مظانها المعتبرة ، مسرعين في رمي المجتمع بالتبديع ، ثم التجهيل ، فالتكفير ، حتى وصل الأمر بغلاتهم إلى التفجير واستباحة الدماء ؛ مما يتطلب حركة سريعة وقوية وغير هيّابة لمواجهة الجمود والفكر المتطرف معًا ؛ حتى نخلص المجتمع والإنسانية من خطر الجهل الشرعي والتطرف الفكري وما قد يتبع ذلك من تبني الإرهاب منهجًا وسلوكًا.

على أننا نؤكد أنه لا يكفي لمن يتصدى لقضايا التجديد أن يكون مُلـمًّا ببعض القواعد دون بعض ، ولا أن يكون مجرد حافظ للقواعد غير فاهم لمعانيها ولا مدرك لدقائقها ، فلا يقف عند قولهم : "الضرر يزال " ، دون أن يدرك أن الضرر لا يزال بضرر مثله أو أكبر منه ، وأن الضرر الخاص يُتحمل لدفع الضرر العام ، ولا يقف

عند حدود قولهم : " درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة "، دون أن يدرك أن درء المفسدة اليسيرة لا يدفع بتضييع المصلحة الكبيرة ، وأنه إذا تعارضت مفسدتان دُفعت الأشد بالأخف ، بل عليه أن يسبر أغوار هذه القواعد بما يمكنه من الحكم الدقيق على الأمور.

ومن ثمة كان إعدادنا لهذا الكتاب في ضوء خطة متكاملة لقراءة عصرية لتراثنا العلمي والفقهي تراعي ظروف الواقع ومستجداته ، مؤملين أن يسهم مع كتابيّ : "الفهم المقاصدي للسنة النبوية " ، و"الكليات الست" وما صدر عن وزارة الأوقاف المصرية من إصدارات عصرية في تشكيل الوعي المستنير الذي نسعى إلى تحقيقه وتحويله إلى حالة استنارة عامة وواسعة في إطار خطتنا المتكاملة لتجديد الخطاب الديني ، مؤكدين أننا لن نتوقف بإذن الله تعالى عن مواصلة مسيرة التجديد ما دام فينا نفس نتنفسه تجديدًا منضبطًا وقراءة واعية للنصوص وللواقع معًا خدمة لديننا ووطننا ، وعملًا على خلق حالة وعي ديني وسطي مستنير ، وتصحيح ما شوهته الجماعات المتطرفة والمتشددة وأصحاب الأفهام السقيمة والجامدة

من بعض جوانب الصفحة النقية لديننا السمح العظيم الذي جاء رحمة للعالمين ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا (صلى الله عليه وسلم) :{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

* * *

تقديمنا لكتاب
" فقه بناء الدول "(*)

قوةُ الدولة قوةٌ لجميع أبنائها ، وقوةٌ للدين ، وقوةٌ للوطن ، وقوةٌ للأمة ، وقد قالوا: رجل فقير في دولة غنية قوية خير من رجل غني في دولة فقيرة ضعيفة؛ لأن الأول له دولة تحمله وتحميه في الداخل والخارج ، والآخر لا ظهر له.

ومن ثمة كان بناء الدولة وتقويةُ مؤسساتها مطلبًا شرعيًّا ووطنيًّا وحياتيًّا لجميع أبنائها ، وبقدر إيمان كل منهم بحق الوطن ، وقوة انتمائه إليه ، وعطائه له ، واستعداده للتضحية في سبيله ، تكون قوةُ الوطن ، وبقدر اختلال هذا الانتماء أو ضعف ذلك العطاء ، والنكوص عن التضحية بالنفس أو بالمال في سبيل الوطن ، يكون ضعف الدول أو سقوطها أو تمزقها ، كما أن الوقوف بقوة خلف الحاكم العادل مطلب شرعي ووطني لا يستقر أمر الدول إلا به.

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من : أ.د/ عبد الله مبروك النجار عضو مجمع البحوث الإسلامية ، وأ.د/ سيف رجب قزامل عميد كلية الشريعة والقانون بطنطا الأسبق ، وأ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد عضو مجمع البحوث الإسلامية ، وأ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر.

على أن مسألة بناء الدول ليست أمرًا سهلًا أو هينًا ، إنما هي عملية شاقة شديدة التعقيد ، تحتاج إلى خبرات تراكمية كبيرة ، وإرادة صُلبة ، وعمل دءوب ، ورؤية ثاقبةٍ في مختلف المجالات والاتجاهات التي تعزز قوة الدولة وتحافظ على أمنها واستقرارها ، مع القدرة على قراءة الواقع وفهم تحدياته وفك شفراته وحل طلاسمه ، والتعامل معه على أسس علمية ومنطقية في ضوء تلكم الخبرات المتراكمة.

مع تأكيدنا أن الأمم والدول لا تبنى بغير العلم والعمل الجاد، والجهد والعرق، فالأمم التي لا تنتج مقوماتها الأساسية، وتكون عالة على غيرها لا تملك كلمتها ولا استقلال قرارها.

وإلى جانب العلم والعمل لا بد من الولاء والانتماء للوطن ، وإيثار مصالحه العامة على المصالح الخاصة والشخصية ، وإدراك أن مصالح الأوطان من صميم مقاصد الأديان ، وأن كل ما ينال من قوة الدولة أو كيانها يتنافى مع كل الأديان والقيم الوطنية والإنسانية، فالتضحية في سبيل الوطن والشهادة في سبيله من أعلى درجات الشهادة في سبيل الله (عز وجل).

كما أنه لا بقاء لأمة أو حضارة بلا قيم ولا أخلاق ، فالأمم التي لا تقوم ولا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها ، ومصيرها إلى الزوال والاندثار.

وعلينا أن نفرق بوضوح بين فقه الدول ، والوعي بالتحديات التي تواجهها ، وسبل الحفاظ عليها ، ومشروعية الدفاع عنها ، وبين نفعية الجماعات المتطرفة التي تعمل على إضعاف الدول ، قصد الإيقاع بنظامها وإحلال الجماعة محله ، حتى لو أدى ذلك إلى إسقاط الدولة أو محوها من خارطة العالم، بتفكيكها إلى كيانات صغيرة لا تنفع ولا تضر ، أو حتى بشطبها نهائيًّا من عالم الوجود كدولة ، بتمزيق أوصالها وتذويبها في أمم أخرى أو ثقافات أخرى، فهذه الجماعات لا تقوم إلا على أنقاض الدول ، ومصلحة الجماعة عندهم فوق مصلحة الدولة ، ومصلحة التنظيم فوق مصلحة الأمة ، بل فوق كل المصالح المعتبرة .

إن محاولة الجماعات الإرهابية إعادة تمركز عناصرها في نحو اثنتين وخمسين دولة لإعادة بناء صفوفها والانقضاض على ما تستطيع من الدول حال ضعفها يتطلب منا العمل الجاد والمواجهة

الشاملة لتفنيد أباطيلها وأغاليطها المنحرفة المدمرة للأوطان والدول، فهذه الجماعات أدوات مستخدمة لصالح أعداء ديننا وأمتنا العربية والإسلامية.

ونؤكد أن فقدان الوطن يعني: فقدان الذات ، وفقدان الهوية ، وفقدان الدفء ، وفقدان الأمان ، وضياع الوطن يعني : ضياع كل شيء ، يعني الهوان ، والشتات ، والغربة ، والحسرة على مرابع الصبا، ويعني بالضرورة فقدان كثير من الأهل والأحبة ورفقاء الدرب والعمر.

وقد قالوا: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل لوطنه فانظر إلى مدى ولائه له وحنينه إليه ، فمن لا خير فيه لوطنه فلا خير فيه أصلًا.

وقد ذكر لنا التاريخ البشري على اختلاف دوله وعصوره نماذج مأساوية لفقدان الوطن ، وما تعرض له فاقدوه من ذل وهوان ، حيث يقول أبو البقاء الرُّنْدِي في وصف ما حل ببعض ملوك الطوائف نتيجة فقدان الوطن:

بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم
واليوم هم في بلاد الشـــر عبدان

مع استماحة أبي البقاء عذرًا لما أجريته من تعديل في بيته.

وباستقراء التاريخ نجد أنه لم تسقط دولة من الدول إلا كانت الخيانة والعمالة أحد أهم أسباب سقوطها وتشرذمها ، مما يقتضي التنبه لخطورة الخونة ، والعملاء ، والمأجورين، ويتطلب أن يكون صوت الدولة عاليًا وقويًّا ، وسيفها مصلتًا على رقاب كل الخونة والعملاء ، ومن يدعمهم ، أو يأويهم ، أو يتستر عليهم؛ لأنهم خطر داهم على الدين والدولة.

نحن لا نخترع دينًا جديدًا ولن يكون ، ولن نسمح بالمساس بثوابت ديننا ولن يكون ، إنما نبحث عن الفهم الصحيح للدين بتقويم ما اعوجّ من الأفهام ، وتصحيح ما انحرف من مسارات الفهم عن عمد أو جهل ، ومهمتنا نفي انتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، والمتاجرين بالدين ، وقطع دابر التطرف الفكري وسد منافذه ، وعدم السماح باكتساب المتطرفين أرضًا جديدة ، بل العمل على محاصرته والقضاء على تطرفهم حيث كانوا.

وهذا يتطلب أن نكون على يقظة تامة ، وألا نغفل عن قضيتنا أو

تغفو أعيننا عنها، فقد حذرنا القرآن الكريم من اغتنام الأعداء للحظات غفلتنا ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً }، ولا شك أن العلم والفكر والثقافة أحد أهم أسلحتنا في مواجهة التطرف والإرهاب ، وهو ما يتطلب منا جهودًا مضنية لتصويب ما حرفته الجماعات المتطرفة من مفاهيم الخطاب الديني السمح الرشيد.

إن الحرب ضروس ، وقد كشرت لنا عن أنيابها ، فيجب ألا نتأخر حتى لا تكون عظتُنا بأنفسنا ، فالعاقل من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، وحتى لا تكون نتيجة تأخرنا ما قاله الشاعر العربي:

ولقـد نصحتهـــم بمنعـــرج اللوى

فلم يستبينوا النصح إلا ضحى غد

وفي هذا الكتاب نخبة من البحوث المختارة من أعمال المؤتمر الدولي الثلاثين الذي عقده المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، يومي ١٥، ١٦/ ٩/ ٢٠١٩م تحت عنوان : " فقه بناء

الدول ... رؤية عصرية " ، مع توصيات المؤتمر ، ووثيقة القاهرة للمواطنة الصادرة عنه.

* * *

تقديمنا لكتاب
" تنظيم النسل ومتغيرات العصر"(*)

إذا كنا نؤمن إيمانًا حقيقيًّا بدور العلم وأهميته ، ودور التخطيط والدراسات المستقبلية في مجال التنمية ، فإننا لا يمكن أن نطلق أحكامًا غير مبنية على العلم والدراسة المتخصصة.

ونؤكد أن تصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتصل بالقضايا السكانية يدخل في صميم تجديد وتصويب الخطاب الديني وتصحيح مساره ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ " (متفق عليه) ، فاشترط (صلى الله عليه وسلم) الباءة التي تشمل القدرة على الإنفاق كشرط للزواج ، ومن باب أولى فهي شرط للإنجاب، فما بالكم بالإنجاب المتعدد؟! ألم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) : "كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يقوت"، وفي رواية :

(*) الكتاب من تأليف : أ.د/ عبد الله مبروك النجار- عضو مجمع البحوث الإسلامية .

" كَفى بِالمرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ" ، ولا شك أن قوله (صلى الله عليه وسلم) : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ) قد بيّن بيانًا لا لبس فيه أن الاستطاعة هنا ليست الاستطاعة البدنية فحسب .

ولطالما أكدنا أن الكثرة إما أن تكون كثرة صالحة قوية منتجة متقدمة يمكن أن نباهي بها الأمم في الدنيا ، وأن يباهي نبينا (صلى الله عليه وسلم) بها الأمم يوم القيامة ، فتكون كثرة نافعة مطلوبة ، وإما أن تكون كثرة كغثاء السيل ، عالة على غيرها ، جاهلة ، متخلفة ، في ذيل الأمم ، فهي والعدم سواء .

كما نؤكد أن القدرة ليست هي القدرة المادية فقط إنما هي القدرة بمفهومها الشامل بدنيًّا وماديًّا وتربويًّا وقدرة على إدارة شئون الأسرة ، وكل ما يشمل جوانب العناية بها والرعاية لها .

وليست القدرة الفردية وحدها مناط الأمر ، بل الأمر يتجاوز قدرات الأفراد إلى إمكانات الدول في توفير الخدمات التي لا يمكن أن يوفرها آحاد الأفراد بأنفسهم لأنفسهم، ومن هنا كان حال وإمكانات الدول أحد أهم العوامل التي يجب أن توضع في الحسبان في كل جوانب العملية السكانية ، فما استحق أن يولد من عاش لنفسه.

على أن تناولنا للقضية يجب ألا يقتصر فقط على الجوانب الاقتصادية إنما يجب أن يبرز إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية كل الآثار الصحية والنفسية والأسرية والمجتمعية التي يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها ، ثم المجتمع ، والدولة ، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب ، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلـــم في معالجة قضاياهـــا السكانية .

مع تأكيدنا على عدة أمور:

١- أن قضية تنظيم النسل والمشكلات السكانية هي من المتغيرات التي يختلف الحكم فيها من زمان إلى زمان ، ومن مكان إلى مكان ، ومن دولة إلى أخرى ، بحيث لا يستطيع أي عالم أن يعطي فيها حكمًا قاطعًا أو عامًّا.

ففي الوقت الذي تحتاج فيه بعض الدول إلى أيدٍ عاملة ولديها من فرص العمل ومن المقومات والإمكانات ما يتطلب زيادة الأيدي العاملة لديها يكون الإنجاب مطلبًا ، وتكون الكثرة سبيلًا من سبل تقدم هذا البلد ، أما الدول التي لا تمكنها ظروفها من

توفير المقومات المطلوبة من الصحة ، والتعليم ، والبنى التحتية ، وفرص العمل اللازمة في حالة الكثرة غير المنضبطة تصبح الكثرة هنا كغثاء السيل ، وإن أي عاقل ليدرك أنه إذا تعارض الكيف والكم كانت العبرة والمباهاة الحقيقية بالكيف لا بالكم.

٢- أن المتأمل في الشريعة الإسلامية يجد أنها أولت إعداد الإنسان عناية خاصة ، بداية من تكوين الأسرة ، مرورًا بمراحل الحمل ، والولادة ، والرضاعة ، فكفلت له حقه في الرضاعة الطبيعية حولين كاملين ؛ حتى ينمو في صحة جيدة، حيث يقول تعالى : {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا } ، ويقول سبحانه : { وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ } ، وقد عدَّ الفقهاء إيقاع الحمل مع الإرضاع جورًا على حق الرضيع والجنين ، وسمّوا لبن الأم التي تجمع بين الحمل والإرضاع لبن الغيلة ، وكأن كلًّا من الطفلين قد اقتطع جزءًا من حق أخيه ، مما قد يعرض أحدهما، أو يعرضهما معًا للضعف.

٣- أن قضية تنظيم النسل لون من ألوان وفاء الوالدين بحقوق أبنائهم ، فكل رب أسرة مسئول عن أبنائه في التربية القويمة ،

والتعليم الصحيح ، والتنشئة السوية ؛ ليكون عضوًا نافعًا لدينه ووطنه ، يقول سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : أَدِّبِ ابْنَكَ ، فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ وَلَدِكَ ، مَا عَلَّمْتَهُ؟.

ولا شك أن الأمم التي تحسن تعليم أبنائها ، وإعدادهم ، وتأهيلهم أمم تتقدم وترتقي ، فالعبرة ليست بالكثرة العددية ؛ وإنما بالصلاح والنفع ، فإن القلة التي يرجى خيرها وبركتها خير من الكثرة التي لا خير فيها ، وهذا ما أكده القرآن الكريم في قوله تعالى: { كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ الله وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ}.

٤- أن الأنبياء (عليهم السلام) عندما طلبوا الولد إنما طلبوا الولد الصالح لا مطلق الولد ، فهذا نبي الله إبراهيم (عليه السلام) يقول : {رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ}، وهذا سيدنا زكريا (عليه السلام) يقول : {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} ، ويقول أيضًا: {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا} ، وأهل العلم لهم هنا وقفة ، يقولون : إن سيدنا زكريا (عليه السلام) لم يطلب الولد لأجل مصلحة دنيوية بل طلبه لأجل الدِّين ، فقال كما

حكى عنه القرآن الكريم : {يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا} ، أي: يرث العلم والحكمة والنبوة والدعوة إلى الله تعالى ، ولم يقل عند طلبه (أولياء) بالجمع، وإنما طلب وليًّا ، فليست العبرة بالكثرة وإنما بالصلاح ، يقول أحد الحكماء : والصلاح هنا مطلق شامل لكل ما فيه صلاح أمر الدنيا والآخرة ، وليس الصلاح المطلوب في الولد صلاحًا قاصرًا على جانب دون جانب ، إنما مطلق الصلاح الشامل الذي يعبر عنه حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) : " الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إلى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ" والقوة هنا عامة ، تعني المؤمن القوي بدنيًّا وصحيًّا وعلميًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا ، فلن يحترم الناس ديننا ما لم نتفوق في أمر دنيانا ، فإن تفوقنا في أمور دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا.

وفي هذا الكتاب الذي نقدمه- تنظيم النسل ومتغيرات العصر- يتناول فضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الله النجار الجوانب العلمية والفقهية لتنظيم النسل تناولًا علميًّا دقيقًا ومتميزًا ، نسأل الله العلي العظيم أن يرزقنا حسن الفهم لديننا ، والسداد في القول والعمل.

تقديمنا لكتاب
"نعمة الماء .. نحو استخدام رشيد للمياه" (*)

لا شك أن قضية المياه إحدى أهم التحديات المعاصرة ، وأن التحولات المناخية قد تزيد الأمور تعقيدًا في كثير من مناطق العالم ، مما يتطلب وعيًا وطنيًّا وإقليميًّا ودوليًّا بقضايا المياه ، وحتى في حالة الوفرة المائية فالحفاظ على الماء وترشيد استخدامه أمر مطلوب، فعندما مرَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) بِسَيدنا سعْد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وَهُوَ يَتَوَضَّأُ ، قَالَ: (مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ ؟) ، قَالَ سعد : وَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ؟ فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (نَعَمْ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ) (رواه أحمد)، كما أننا نجد بعض الدول رغم الوفرة المائية الشديدة لديها تطبق الترشيد بقوة ، وفي

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من: أ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر ، ود/ هاني سيد تمام أستاذ الفقه المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، ود/ ياسر أحمد مرسي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة ، ود/ أيمن علي أبو عمر القائم ببتسيير أعمال الإدارة المركزية لشئون الدعوة بوزارة الأوقاف.

أعلى درجاته ، حتى يصير الترشيد ثقافة مجتمع ، وثقافة شعب ، وثقافة أمة ، وهذا هو منهج ديننا الحنيف الذي نبذ الإسراف في كل شيء ونهى عنه ، يقول الحق سبحانه : { وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف :٣١] ، ويقول سبحانه : { وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا } [الإسراء:٢٦-٢٧]، ولا شك أن التبذير أعم من أن يكون في المال؛ فإنه يشمل التبذير في جميع المجالات بما فيها الإسراف في استخدام الماء وغيره.

ولقد عُرِفَ الشعب المصري منذ نشأته بأن عقيدته تقوم على احترام نعمة مياه نهر النيل ، وتقوم ثقافة أبنائه منذ القدم على الحرص على نهر النيل وعدم تلويثه ، واعتبار تلويثه جريمة من الجرائم الكبرى ، وقد كان المصري القديم يكتب ضمن وصاياه في نهاية حياته أنه لم يفعل كذا وكذا من الجرائم ، وأنه لم يلوث ماء النهر ، وكأنه يتقرب إلى إلهه بهذه الفضيلة ، وابتعاده عن تلك الجريمة النكراء ، جريمة تلويث مياه النهر ، فهذه ثقافة المصريين منذ القدم ، وعقيدتهم منذ الأزل في احترام مياه النهر ، والحفاظ على

المياه ، وعدم تلويثها ، وهو ما أكدت عليه شريعتنا الغراء .

وقد تضمن الكتاب مجموعة أبحاث تتحدث عن أهمية نعمة المياه ، وأثرها في بناء الحضارات ، وضرورة المحافظة عليها من خلال ترشيد استهلاكها ، وعدم الاعتداء عليها، مع ملحق فني من إعداد وزارة الموارد المائية والري؛ لأن كل نقطة ماء يمكن أن تكون سببًا في حياة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر ، أو نبات ، وإهدار كل نقطة ماء قد يعني إهدار حياة ، كما أن كل نقطة ماء تساوي مالًا مقومًا ، وفقدها أو إهدارها يعني مالًا مقومًا يذهب هدرًا، كما أن الحفاظ عليها نقية بلا تلوث يعد حفاظًا على ثروة مالية ، وأن تلويثها يعني إهدارًا مائيًّا وماليًّا معًا ؛ لأن تنقيتها تترجم إلى مال ، وأثرها على الصحة لا يقوم بمال .

* * *

تقديمنا لكتاب
"الحوار الثقافي بين الشرق والغرب" (*)

ديننا الحنيف قائم على الإيمان بالتنوع والاختلاف ، فهو آية من آيات الله وسننه الكونية ، حيث يقول سبحانه : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}(الروم:٢٢)، ويقول سبحانه : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا }(الحجرات: ١٣) ، ويقول سبحانه : { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}(هود : ١١٨-١١٩) ، فالتنوع قوة وثراء لو أحسنا التعامل معه والإفادة منه ، وبديل الحوار هو الصدام ، وبديل الإيمان بالتنوع والاختلاف هو الاقتتال والاحتراب.

وبالواقع المعاين المشاهد ندرك أن أكثر الأمم إيمانًا بحق التنوع والاختلاف وقبول الآخر والمختلف وترسيخ أسس التعايش

(*) هذا الكتاب من إعداد الإدارة المركزية للسيرة والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

السلمي ؛ هي أكثر الأمم أمنًا واستقرارًا وتقدمًا ورخاءً وازدهارًا ، وأن الأمم التي وقعت في آتون الاحتراب والاقتتال الطائفي أو المذهبي أو العرقي أو القبلي دخلت في دوائر فوضى ودمار عصفت بكيانها وأصل وجودها ، وعلى أقل تقدير مزقت أوصالها وهزت كيانها ، ولو أن البشرية قد أنفقت على التنمية معشار ما تنفقه على الحروب لتغير حال البشرية وعمَّها الأمن والاستقرار .

وينبغي أن يقوم الحوار على أسس ومرتكزات قوية ، نذكر منها :

١ - السعي الدائم نحو التعارف ، والانفتاح على الثقافات الأخرى، وليس الانغلاق المحكم الذي يؤدي بنا إلى الخوف من الآخر المجهول ، فتعميق الوعي بالآخر وثقافته ومجريات حياته يجعله بالنسبة لنا أقل غرابة ، ويجعل الحوار معه أكثر يُسرًا وأسهل مأتىً وتناولًا ، وإذا كان الحكم على الشيء فرعًا عن تصوره - كما يقول المناطقة - فلا بد أن نتعرف على ما لدى الآخر من قيم ومثل وثقافات ، وأن نحلل ذلك تحليلًا جيدًا محايدًا ومنصفًا قبل الحكم له أو عليه ، وألا تكون لدينا أحكام وقوالب جاهزة مسبقة في الحكم على الآخرين.

وهو ما تنبه إليه كثير من علمائنا الأجلاء ، فكتب الشيخ/ محمد عرفة – رحمه الله- في مجلة الأزهر عام ١٩٤٦م : يجب أن يفهم الغرب الإسلام ، وأن يفهم الإسلام مدنية الغرب ، فإنهما إذا تفاهما زال ما بينهما من سوء ظن ، وأمكن أن يعيشا معًا متعاونين ، يؤدي كل منهما نصيبه من خدمة الإنسانية ، كما ينبغي على العلماء المسلمين أن يبينوا مدنية الغرب على حقيقتها ليحل التعارف محل التناكر ، ويحل السلام محل الخصام.

٢- تحكيم لغة العقل ورغبة جميع الأطراف في نبذ العنف والكراهية والتطرف والإرهاب ، إيمانًا بأن قضية الصراع ليس فيها رابح مطلق أو خاسر مطلق ، وأن عواقب الصراع والعنف والتطرف وخيمة على الإنسانية جمعاء ، وأنه لا بديل للإنسانية عن البحث في القواسم والمصالح المشتركة ونقاط الالتقاء ؛ لما فيه خير البشرية بعيدًا عن الحروب والصراعات والقتل والاقتتال والتخريب والتدمير.

٣- أن تكون لدى جميع الأطراف الرغبة الحقيقية في إعلاء القيم المشتركة وتجنب جميع مظاهر الأنانية والاستعلاء ، يقول ابن رشد

محددًا منهجه في الأخذ من ثقافة اليونان وغيرهم : يجب علينا أن ننظر في الذي قالوه وما أثبتوه في كتبهم ، فما كان منها موافقًا للحق قبلناه منهم ، وسُررنا به ، وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق نبّهنا عليه وحذّرنا منه ، وعذرناهم.

٤- التركيز على الإفادة من النافع والمفيد ، وغض الطرف عن خصوصيات الآخر الثقافية التي لا تتفق مع قيمنا وحضارتنا، في ضوء الاحترام المتبادل بين الأمم والشعوب ، من غير أن يحاول الغرب أن يفرض قيمه وأنماط حياته الخاصة على الشرق ، ولا أن يحاول الشرق حمل الغرب حملًا على مفردات حضارته وثقافته وقيمه وتراثه ، بل على الجميع أن يُعلي من شأن القيم المشتركة ، وما أجمعت عليه الشرائع السماوية والقيم الإنسانية، فيبحث الجميع عن المتفق عليه ، ويعذُر بعضهم بعضًا في المختلف فيه .

٥- التأكيد على أن الأخلاق والقيم الإنسانية التي تكون أساسًا للتعايش بين البشر لم تختلف في أي شريعة من الشرائع ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى: إِذا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ ".

فأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، أو أباحت عقوق الوالدين ، أو أكل السحت ، أو أكل مال اليتيم ، أو أكل حق العامل أو الأجير.

وأروني أي شريعة أباحت الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو خُلف العهد ، أو مقابلة الحسنة بالسيئة ، بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية ، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب ، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

وقد علمنا ديننا الحنيف أن نقول الكلمة الطيبة للناس جميعًا بلا تفرقة ، فقال سبحانه : {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} (البقرة : ٨٣) ، بل نحن مطالبون أن نقول التي هي أحسن ، يقول سبحانه وتعالى : {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (الإسراء : ٥٣) ، ويقول سبحانه : {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (فصلت : ٣٤) .

إنها لدعوة عظيمة للتسامح في كل الشرائع السماوية لكي تعيش البشرية في سلام وصفاء ، لا نزاع ولا شقاق ، ولا عنف ولا إرهاب ، وهو ما نسعى إليه من خلال اعتمادنا المنهج الحضاري بين الشرق والغرب على النحو الذي يحقق سعادة البشرية وسلامها دون تمييز.

* * *

المبحث الثاني:

مقدمات أخـــر

١. مقدمة كتابنا : بناة وهدامون .
٢. تقديمنا لكتاب : فقه السيرة النبوية قراءة جديدة .
٣. مقدمـــة كتابنـــا : مسيرة النقـــد الأدبي وقضايـــاه.
٤. مقدمة رسالتنا للدكتوراه : الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي عرض ودراسة وموازنة.

مقدمة كتابنا
" بناة وهدامون"

شتان بين النقيضين : البناء والهدم ، وإذا كان ديننا دين البناء وعمارة الكون ، فإن كل من يأخذك إلى هذا الطريق ، طريق البناء ، طريق العمل ، طريق الإنتاج ، طريق الإتقان ، طريق الحفاظ على المنشآت العامة والخاصة إنما يأخذك إلى طريق الإسلام ، إلى طريق الوطنية ، إلى طريق الحضارة والرقي ، إلى خير المجتمع وخير الإنسانية ، ومن يحاول أن يجرك إلى طريق آخر عكس هذا الاتجاه ، إنما يأخذك إلى طريق الهلاك في الدنيا والآخرة ، يقول الحق سبحانه: { فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها }، ويقول سبحانه : {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَالله لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}.

وإن الباني الحقيقي لا يمكن أن يكون هدامًا ، لأنه صاحب نفس ملأى بالخير والعمار والحضارة والرقي ، أما الهدامون أصحاب النفوس المريضة الذين قصرت بهم همهم عن أن يجاروا أهل الجد والكفاح والتعب والعرق والعمل والإنتاج ، فلم يجدوا جبرًا لنقيصتهم وسترًا لعورتهم وشفاء لإحساسهم بالنقص سوى حسد الأماجد وانتقاص الأفاضل على حد قول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه": وأهل النقص رجلان : رجل أتاه التقصير من قبله ، وقعد به عن الكمال اختياره ، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ، ويحنو على الفضل بقدر سهمه ، وآخر رأى النقص ممتزجًا بخلقته ، ومؤثّلا في تركيب فطرته فاستشعر اليأس من زواله ، وقصرت به الهمة عن انتقاله ، فلجأ إلى حسد الأفاضل ، واستغاث بانتقاص الأماثل ، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته ، وستر ما كشفه العجز عن عورته ، اجتذابُهم إلى مشاركته ، ووسمُهم بمثل سِمَتِه .

هؤلاء الهدامون خطر داهم على المجتمع ، وعلى أمنه الاجتماعي والاقتصادي ، يقول الشاعر:

لو كل بانٍ خلفه هـادم كفى

فكيف ببانٍ خلفه ألف هادم

ويقول الآخر:

متى يبلغ البنيان يوما تمامـه

إذا كنت تبنيه وغيرك يهـدم

وأخطر من هؤلاء من يقومون بهدم أوطانهم عمالة أو خيانة ، على حد قول الشاعر العراقي " محمد مهدي الجواهري":

ولقد رأى المستعمرون فرائسا

منا وألفوا كلب صيد سائبـا

فتعهدوه فراح طوع بنانهـــم

يبرون أنيابـــــا له ومخالبـــا

مستأجرين يخربون بيوتهـــم

ويكافأون على الخراب رواتبا

إن ديننا دين البناء ينبذ كل ألوان ومعاني الهدم والتخريب ، ويدعو إلى البناء وعمارة الكون ، وكل ما فيه صالح الإنسانية ، يقول سبحانه : { وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ

خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ الله قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ }، ويقول سبحانه : {فَاذْكُرُواْ آلاء الله وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ }، مما يتطلب منا جميعًا العمل على نشر ثقافة البناء ، وترسيخ الإيمان به ، وأن ما كان للإنسان فلن يخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الناس جميعًا لو سابقوا إنسانا فلن يأخذوا شيئا كتبه الله له ولن يصلوا إليه ، ولو دفعوه إلى الأمام جميعًا ، فلن يُوصِّلوه إلا إلى شيء كتبه الله له ، يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ"، فما أحوجنا إلى تطهير قلوبنا من الحقد والحسد والعمل على تعطيل الآخرين أو تعويق مسيرتهم أو محاولات إفشالهم ، فليس كل ذلك ولا شيء منه من الإيمان أو كريم الأخلاق أو القيم الإنسانية النبيلة، إنما على العكس من ذلك كله ، فهو حقد يأكل صاحبه على حد قول أبي تمام:

اصبر على مضض الحسود

فــإن صبـرك قــاتلــــــه

فالنـــار تأكل نفسهـــــــا

إن لم تجـــد مـا تـأكلـــــه

فلنصدق النية والعمل لله (عز وجل)، ثم لوطننا ومجتمعنا ، وأبنائنا وأحفادنا وأنفسنا، ذلك أن الواجب الشرعي والوطني يتطلبان منَّا جميعًا وحدة الصف وتضافر الجهود لخدمة ديننا ووطننا وقضايانا العادلة ، وألا يعوق أحدٌ منَّا مسيرة الآخر ، بل يشد بعضنا أزر بعض ، فالعمل العمل ، لأنه صمام الأمان ، وحذارِ حذارِ من الهدم والتخريب ، فهما سبيل الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة ، وعلينا أن نأخذ وبشدة على أيدي الهدامين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا " فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟ قَالَ : " تَحْجُزُهُ ، أَوْ تَمْنَعُهُ ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُه" ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أوشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ ".

وإذا كان الله (عز وجل) قـــد رفـع شأن العلـم والعلمـاء فقـال سبحانه : { يَرْفَعِ الله الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ

وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ" فإن من المسلمات أن هؤلاء العلماء الذين رفع الله قدرهم في الدنيا والآخرة ، هم أرباب العلم النافع الذي ينفع البشرية في أمور دينها أو أمور دنياها ، وليس علماء الفتنة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون به ثمنا قليلا ، حيث يقول الحق سبحانه : {مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}، ويقول سبحانه: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، ويقول سبحانه: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آَخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

ولا يزال علماء الفتنة من أبناء الجماعات الضالة يحرفون الكلم عن مواضعه ، يجتزئون النصوص تارة ، ويلوون أعناقها أخرى ، يجمد بعضهم عند ظواهر النصوص دون فهم لمقاصدها ، ويحمِّلها بعضهم ما لا تحتمل من التفسير والتأويل، ويخرج بها بعضهم عن سياقها جملة وتفصيلا.

وهنا يأتي دور علماء الأمة ومصابيح الهداية والرشاد ، لبيان صحيح الدين ، وكشف زيغ وزيف المبطلين والمتاجرين بالدين، ومن يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): "يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ".

والذي لا شك فيه أن المعركة الفكرية أو معركة الوعي لا تقل خطورة أو ضراوة عن سائر الأسلحة الفتاكة والمدمرة ؛ لأن الهزيمة المعنوية للشعوب من داخلها أقل كلفة للأعداء، وأشد خطرًا على

الأمة، تمزق أوصالها، وتفرق جمعها- من بث الشائعات والأكاذيب والافتراءات تارة ، وإثارة الفتن بين أبنائها أخرى ، والتحريض على العنف واستباحة الدماء والأعراض والأموال ثالثة - مما يجعل من مواجهة تلك الأفكار الضالة والجماعات العميلة والمنحرفة واجب الوقت دينيًّا ووطنيًّا وإنسانيًّا ، حتى نجلِّي عن صفحة ديننا النقية ما ران عليها من تراكم غبار وأفكار تلك الجماعات الضالة ، وننقذ أوطاننا وأمتنا والبشرية من خطر الإرهابيين والمتاجرين بالدين.

ويدور الكتاب حول محورين أساسين:

الأول : العلماء " دعاة البناء ".

والثاني : الهدامون " جماعات الضلال.

آملا أن ألقي بذلك الضوء على واحدة من أهم القضايا العصرية في البناء الفكري، من خلال بيان دور العلماء في بناء الوعي وعمارة الكون وصناعة الحضارة ، ودور دعاة الهدم في إثارة الفتن ، وهدم الأوطان ، وغرس الإحن والعداوات ، وتدمير الحضارات، وسفك دماء الأبرياء ، وبثّ الفرقة والشتات بين بني البشر.

* * *

تقديمنا لكتاب
" فقه السيرة النبوية قراءة جديدة" (*)

إن السيرة النبوية المشرفة هي التطبيق العملي لجوانب كثيرة من سنة نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وهي نبراس مبين لنا إلى يوم الدين ، غير أن أكثر الجماعات المتطرفة في عصرنا الحاضر قد ركزت في قراءة السيرة النبوية وكتابتها وتدريسها على موضوع حروب النبي (صلى الله عليه وسلم) كجانب تكاد تجعله وحيدًا أو الأبرز – على الأقل – في السيرة النبوية ، لأنها كانت تجيد استخدام هذا الجانب في تهييج مشاعر وإلهاب حماس عناصرها وكوادرها ، بل تتخذ من ذلك وسيلة لإثارة العامة أحيانًا كثيرة .

ولقد سمى القرآن الكريم الأسماء بمسمياتها الأدق ، فلم يرد في القرآن الكريم لفظ غزوة قط ، إنما عبر بلفظ يوم عما كان من نصر المسلمين يوم بدر الذي سماه الحق سبحانه وتعالى يوم الفرقان، فقال سبحانه : { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ

(*) هذا الكتاب من إعداد د/ أسامة فخري الجندي القائم بتسيير أعمال الإدارة العامة لشئون المساجد بوزارة الأوقاف .

آمَنتُم بِالله وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجُمْعَانِ والله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } .

وهكذا أيضا تحدث القرآن الكريم عن يوم حنين ، حيث يقول الحق سبحانه : {لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ الله مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فقد كانت حروب النبي (صلى الله عليه وسلم) دفاعية ، إما دفعا لعدوان ، أو ردًّا لاعتداء ، أو دفعا لخيانة أو تآمر ، أو لنقض الأعداء عهدهم معه (صلى الله عليه وسلم)، ولَم يكن أي منها اعتداء على أحد ، فكان الأنسب والأدق التعبير عنها بلفظ يوم وليس بلفظ غزوة ، وهو ما نعتمده ونراه الأدق في التعبير ، وضعا للأمور في نصابها وتسميتها بمسمياتها التي سماها القرآن الكريم بها وآثرها على غيرها ، وهو ما عبر عنه بعض الكتاب والمؤرخين المدققين في مؤلفاتهم تحت عنوان : " أيام العرب في الجاهلية والإسلام".

وإننا لنؤكد أن الحرب ليست غاية ولا هدفًا لأي دولة رشيدة أو حكم رشيد ، كما أنها ليست نزهة أو فسحة ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : "لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا".

غير أن الحرب قد تكون ضرورة للدفاع عن النفس والعرض، والمال ، والديار والأوطان ، وكيان الدول ووجودها ، وحمايتها من الأخطار التي تتهددها .

إن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لرد الظلم والعدوان، وهي محصورة في ردِّ الاعتداء ودفع الظلم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:{ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} ، ويقول سبحانه: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } ، ويقول سبحانه : { وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}، بل إن الإسلام قد دعانا إلى الإقساط إلى جميع

المسالمين وبرِّهم وإجارتهم إن استجاروا بنا ، فقال سبحانه : {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وقال (عز وجل):{وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ}.

وفي هذه النصوص ما يؤكد أن الإسلام لا يعرف الاعتداء أو الظلم، إنما شرع القتال أصلاً لردِّ العدوان والاعتداء ، فأذن الحق سبحانه للذين يقاتَلون ظلمًا بأن يهبُّوا للدفاع عن أنفسهم، على ألا يعتدوا ، وألا يغدروا ، وألا يسرفوا في الدماء ، أو يتوسعوا فيما أُذن لهم به من دفع العدوان.

وقد نهانا ديننا فقط عن ولاية من يقاتلوننا ويخرجوننا من ديارنا أو يعملون على ذلك ، فقال سبحانه: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

وحتى في الحرب التي هي ردّ للاعتداء نهى الإسلام نهيًا صريحًا عن تخريب العامـر ، وهدم البنيـان ، وكان أصحاب رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) حين يجهزون جيوشهم يوصون قادتها ألا يقطعوا شجرًا ، وألا يحرقوا زرعًا ، أو يخربوا عامرًا ، أو يهدموا بنيانًا ، إلا إذا تحصن العدو به واضطرهم إلى ذلك ولم يجدوا عنه بديلًا ، وألا يتعرضوا للزرّاع في مزارعهم ، ولا الرهبان في صوامعهم ، وألا يقتلوا امرأة ، ولا طفلًا ، ولا شيخًا فانيًا ما داموا لم يشتركوا في القتال .

هذا ، وقد ظل النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في مكة المكرمة ثلاثة عشر عامًا يتحملون أذى المشركين دون أن يؤذن لهم بالقتال ولو دفاعًا عن أنفسهم لأسباب من أهمها وفي مقدمتها : استنفاد سائر الوسائل السلمية في الدعوة المبنية على الحكمة والموعظة الحسنة، وتربية المؤمنين على أقصى درجات ضبط النفس وتحمل الأذى في سبيل الله ، وإقامة الحجة على الخصم ، ومنها عدم التكافؤ في المواجهة آنذاك إذ كانت المواجهة بكل حسابات البشر محسومة لصالح المشركين ، مما ينذر بخسائر فادحة في صفوف المستضعفين من المسلمين حال التعجل في المواجهة ، والإسلام حريص على حفظ الدماء كل الدماء ، فما بالك بدماء أبنائه المؤمنين

به المدافعين عنه المستعدين للتضحية بأغلى ما يملكون وكل ما يملكون في سبيله ، ومنها لفت أنظارنا إلى أهمية الإعداد الجيد أفرادًا وتسليحًا وتخطيطًا قبل الدخول في أي مواجهة مالم تفرض علينا فرضًا ، ولم يكن ثمة بُدٌّ من الخروج لمواجهة العدو على نحو ما كان من النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في مواجهة المشركين في بدر وأحد والخندق وغيرها من أيامهم.

وفي التأكيد على هذا الإعداد الجيد والأخذ بأسباب القوة والمنعة، يقول الحق سبحانه : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ}.

على أن الغاية هنا والمراد من هذه الآية إنما هو ردع العدُو من أن يعتدي علينا ، فلو تحقق الردع دون قتال فإنها لأسمى غاية وأنبل هدف ، حيث يقول الحق سبحانه في شأن يوم الأحزاب: { وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}، وفي شأن يوم الحديبية يقول سبحانه ممتنًّا على عباده

المؤمنين بتجنيبهم القتل والقتال:{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} ، فلما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام إلى المدينة ، وصار لهم بها دولة ووطن يدافعون عنهما ، كان الإذن بالقتال الدفاعي في قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}.

مع ضرورة الوقوف عند الآتي:

١- في قوله تعالى: {أُذِنَ} عبَّر في الإذن بالبناء للمجهول ولم يقل سبحانه : أذن الله ، ليكون العمل بالإذن على قدر الحاجة والضرورة ، وألا يستخدم الإذن على إطلاقه ، فيؤدي ذلك إلى الإسراف في القتال والدماء .

٢ - في قوله تعالى : { لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ } لم يقل سبحانه : أذن للمؤمنين ، أو للمسلمين ، أو حتى للمضطهدين ، أو من أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، فلم يكن كل ذلك وحده مسوغًا لاستخدام هذا الإذن ، وإنما هي علة واحدة أن يُقاتَلوا، وأن تكون المبادرة والمبادأة من عدوهم بالقتال ، ولذا كان رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) وخلفاؤه الراشدون يوصون قادة جيوشهم ألا يبدأوا أحدًا بقتال حتى يكون العدو هو البادئ بالبغي والعدوان ، وألا يأخذوا أحدًا غدرًا أو خيانة حتى لو علموا بنيته فيهما ، حيث يقول الحق سبحانه: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} أي: فإن خفت من قوم غدرًا أو خيانة فاطرح إليهم عهدهم ، ورده عليهم ، وتحلل منه قبل الشروع في قتالهم.

٣ - ولم يكتف النص القرآني في قضية الإذن بأن يكون العدو هو البادئ بالقتال، بل جعل قتال المسلمين لأعدائهم لأجل ردِّ بغيهم وظلمهم وعدوانهم عنهم أو عليهم ، فجعل العلة الثانية والاشتراط الثاني للإذن ظلم عدوهم لهم ، حيث يقول الحق سبحانه : {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُم ظُلِمُوا}، وهنا يأتي التأييد الإلهي حتى لو كانوا قلة مستضعفين {وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، طالما أن العلة هي ردّ الظلم وحماية الدولة والوطن لا البغي ولا الطمع .

وعندما ننظر إلى سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الجانب

نجد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) عندما علم بمقدم قريش في يوم بدر جمع (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وجعل يقول : (أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ)، فقام سيدنا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) فتكلم وأحسن ، ثم قام سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتكلم وأحسن ، ثم قام سيدنا الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو (رضي الله عنه) فقال: " يا رسول الله ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ فَنَحْنُ مَعَكَ ، وَاللهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ}، وَلَكِنْ نقول: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ ، فو الّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ ، حَتَّى تَبْلُغَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَيْرًا ، وَدَعَا لَهُ بِهِ . (دلائل النبوة للبيهقي).

وهؤلاء الصحابة الثلاثة كانوا من المهاجرين ، فأحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يعرف رأي قادة الأنصار ، لأن نصوص بيعة العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج المدينة ، إذ كانوا قد بايعوا النبي (صلى الله عليه وسلم) على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأعراضهم وأموالهم مادام معهم داخل المدينة ، ولم تكن البيعة قد

تعرضت لخروجهم معه خارج المدينة ، فأحب (صلى الله عليه وسلم) أن يسمع رأيهم صراحة ، فكلما تحدث واحد من المهاجرين قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " أشيروا عليَّ أيها الناس" ، وهو يريد أن يسمع رأي الأنصار ، حتى فطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سيدنا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ (رضي الله عنه)، فقال: وَالله لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ : أَجَلْ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا ، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنحْن مَعَك ، فو الّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا ، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله ، فَسُرَّ رَسُولُ الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِقَوْلِ سَعْدٍ ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: "سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَالله لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ".

ولهـذا الموقف وغيره من المواقف العظيمة لسيدنا سعد بن معـاذ

(رضي الله عنه) كانت البشرى والمكافأة العظيمة من الله تعالى له عند وفاته ، حيث قال (صلى الله عليه وسلم) : " اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ".

أما يوم بني قينقاع فيرجع إلى ما كان من يهود بني قينقاع الذين كان قد ملأ الحقد نفوسهم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه بعد أن أعزهم الله بالنصر في بدر، فقالوا : " يا محمد ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا " ، وكشف جماعة منهم عورة امرأة مسلمة في السوق ، فلما هبَّ أحد المسلمين لسترها والدفاع عنها اجتمعوا عليه وقتلوه ، فكان لابد من التجهز لقتالهم ردعًا لبغيهم وخيانتهم فجهز النبي (صلى الله عليه وسلم) جيشًا لقتالهم وانتقل سريعًا إلى ديارهم وحصونهم ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، حتى اضطروا إلى الاستسلام والنزول على حكمه (صلى الله عليه وسلم)".

وفي أُحد كانت قريش قد جاءت لتثأر لقتلاها في بدر ، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للقائهم ، ولم يبدأ هو ولا أصحابه

بالقتال أو طلب قريش ، إنما هي التي أتت بقَضِّها وقضيضها وخيلها وخيلائها باغية تريد استئصال دعوته (صلى الله عليه وسلم) والثأر لقتلاها في بدر .

وفي يوم حمراء الأسد كان أبو سفيان قد عزم إثر أُحُد على العودة إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين ، فندب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه إلى الخروج لملاقاتهم ، وقال (صلى الله عليه وسلم): "لا يخرج معنا إلا من شهد أحدًا" ، فخرج معه أصحابه وجراحهم تثغُب دمًا ، وهنا خشي أبو سفيان ومن معه أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد جهز جيشًا جديدًا من أصحابه ، ففضَّلوا الهرب والانصراف إلى مكة حتى لا يضيعوا ما أنجزوه في أُحد ، وبقي النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه ثلاثة أيام في حمراء الأسد لم يمسسهم سوء ، وفي شأن هذا اليوم نزل قول الله تعالى : {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لله وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}.

وفي يوم بني النضير كان يهود بني النضير هم الذين نقضوا العهد وحاولوا اغتيال النبي (صلى الله عليه وسلم).

وفي يوم دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها.

وفي يوم بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ردًّا لبغيهم وعدوانهم.

وفي يوم الخندق اجتمعت الأحزاب من كل حَدَب وصوب لحصار المدينة ، فكان القتال دفاعًا عن النفس ، والوطن ، والديار ، والأرض ، والعرض ، وهو ما يصوره الحق سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب فيقول : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بالله الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}.

ثم يصور سبحانه وتعالى حال المؤمنين الصادقين ، فيقول : {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}.

وفي يوم بني لحيان ، كان بنو لحيان هم الذين غدروا بعشرة من الصحابة بالرَّجيع، وتسببوا في قتلهم واستشهادهم.

وفي يوم ذي قَرَد أو يوم الغابة كان جماعة من أعراب نَجْد من بني فزارة قد أغاروا على إبل للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نَجْد ، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم .

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة ، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين ، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال ، فكان لابد من مواجهتهم وكف شرهم .

أما يوم مؤتة فكانت ثأرًا لقتل الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي (رضي الله عنه) رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى ، فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر فأوثقه رباطًا ، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل – ولا يزال – من أشنع الجرائم وأبشعها، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على النبي(صلى الله عليه وسلم)، فجهز جيشًا ووجهه إليهم .

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، حيث

بيَّتوهم وقتلوهم غدرًا عند ماء بالقرب من مكة يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه) إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة مستغيثا بقوله :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِـــدٌ مُحَمَّـــدًا
حِلْـــفَ أَبِينَـــا وَأَبِيهِ الْأَتْلَـدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلْـــدًا وَكُنّا وَالِـــدَا
ثُمّتَ أَسْلَمْنَـــا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْـرًا أَعْتَدَا
وَادْعُ عِبَـــادَ الله يَـأْتُـوا مَـدَدَا
إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُـهُ تَرَبّـدَا
فِيهِـــمْ رَسُـــولُ الله قَدْ تَجَرّدَا
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِـدًا
إِنّ قُـرَيْشًا أَخْلَفُـوك الْمَوْعِـدَا
وَنَقَضُـوا مِيثَـاقَـك الْمُوَكّـــدَا
وَجَعَلُـوا لِي فِي كَـدَاءٍ رُصّـدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا

وَهُـــمْ أَذَلّ وَأَقَـــلّ عَـــــدَدَا
هُمْ بَيّتُـــونَـا بِالْـوَتِيرِ هُجّـــدًا
وَقَتَّـلُـــونَا رُكّعًـــــا وَسُجّـدَا

فقال (صلى الله عليه وسلم) : " نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِمٍ" فَمَا بَرِحَ حتَىَّ مَرَّتْ سحابة فِي السَّمَاءِ ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "إنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ".

ومع ذلك لما دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة فاتحًا منتصرًا أعلن العفو العام عن أهل مكة ، وقال قولته المشهـورة : "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بكم؟" قَالُوا: خَيْرًا ، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ ، فقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : " اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ "، وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل.

ويوم حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البادئة بالعداء ، وأعدت العدة للانقضاض على المسلمين ، وقد سار مالك بن عوف النّصري على رأس جيش حتى وصل إلى القرب من مكة، فكان لابد من مواجهتهم ورد بغيهم وعدوانهم .

وأما تبوك فكانت ردًّا لعدوان الرومان الذين كانوا يعملون على إنهاء قوة المسلمين آنذاك ، ذلك أنهم كانوا يرونها الخطر الحقيقي على سلطانهم ، فأخذوا يهددون ثغورهم ، ويعدون العدة للانقضاض عليهم، فانتدب النبي (صلى الله عليه وسلم) أصحابه للتجهز والخروج في ساعة العسرة ، ولم يكن من الحكمة أن ينتظرهم المسلمون حتى يداهموهم في مدينتهم ، وانتهت بفرار الروم وانسحابهم دون قتال ، وحرص النبي (صلى الله عليه وسلم) على حفظ الدماء فلم يتتبعهم واكتفى (صلى الله عليه وسلم) بالردع الذي تحقق لهم.

ومن يتتبع سائر أيام نبينا (صلى الله عليه وسلم) في ملاقاة أعدائه يجد أنها لا تخرج عن دائرة ردِّ البغي ودفع العدوان وردع التآمر والكيد له (صلى الله عليه وسلم) ولدعوته ولأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ومع ذلك فقد أصَّل ديننا الحنيف لأخلاق الفرسان في فلسفة القتال بأنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين ، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يوصي قادة جيشه بقوله : "انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ وَبالله

وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ الله ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا ، وَلَا طِفْلًا ، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا تَغُلّوا" ، وفي رواية : "وَلَا تَغُلّوا ، وَلَا تَغْدِرُوا ، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا"، وفي وصية أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) لأحد قادة جنده : " وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً ، وَلَا صَبِيًّا ، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا ، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا ، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً ، وَلَا بَعِيرًا ، إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ ، وَلَا تَغْلُلْ ، وَلَا تَجْبُنْ ".

وقد شدد النبي (صلى الله عليه وسلم) في النهي عن قتل الأطفال أو الذرية تشديدًا كبيرًا ، وبلغه (صلى الله عليه وسلم) قتل بعض الأطفال فوقف يصيح في جنده : "مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَ بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ ، أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ، أَلاَ لاَ تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً ".

وقد نهى (صلى الله عليه وسلم) عن قتل جميع من لا يقاتل وخاصة النساء ، فلما رأى امرأة مقتولة ، وكان من حالها أنها لا تقوى على القتال استنكر (صلى الله عليه وسلم) ذلك بشدة ، وقال: " مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ" ، مما يؤكد أنه لا قتل على المعتقد قط ، وأن القتل ليس مقابلًا للكفر ، إنما هو مقابل لدفع

القتل ورد الاعتداء ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

فالقتال في الإسلام مقصور على رد الاعتداء دون تجاوز ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }، ويقول سبحانه : { فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ }.

ومما يؤكد أن الحرب في الإسلام إنما هي لرد الاعتداء ودفع العدوان دون أي تجاوز أو بغي أو إسراف في الدماء ، ما شرعه الإسلام في معاملة الأسرى من حسن معاملتهم والإحسان إليهم ؛ حيث يقول الحق سبحانه : {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِئِينَ فِيهَا

عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا}.

وقد دعا نبينا (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفق بالأسرى ، فقال: "اسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْرًا" ، وقد أوصى أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام ، وفي قصة " ثُمَامَةُبْنُ أُثَالٍ الحنفي" ما يؤكد كيف كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يتعامل مع أسراه ، ذلك أنه عندما أسر ثمامة بن أثال ورَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ ، خَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم)، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ ، حَتَّى كَانَ الْغَدُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، يَامُحَمَّدُ ، وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَد

أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلاَدِ إِلَيَّ ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ ، قَالَ قَائِلٌ: صَبَوْتَ ، قَالَ: لاَ، وَلكِنْ أَسْلمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم)، وَلاَ وَاللهِ لاَ يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم).

وهذه الثقافة في معاملة الأسرى عبر عنها الشاعر الأموي الكبير همام بن غالب التميمي المعروف بالفرزدق ، فقال :

وَلا نَقتُلُ الأسرَى وَلكنْ نَفُكُّهمْ
إذا أثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغــارِمِ

أما إذا فُرض علينا القتال فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل عن الدفاع عن أوطاننا ، إنما نفتديها بأنفسنا وشعارنا في ذلك : والله إنها لإحدى الحسنين إما النصر وإما الشهادة ، حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا المسلمين في يوم بدر : {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ

إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}، أي : ويقطع دابر الكافرين المعتدين عليكم المتربصين بكم الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم ، لا ذنب لكم ولا جريرة إلا أنكم آمنتم بالله ورسوله ، ويقول سبحانه : {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }، ويقول سبحانه:{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، ويقول سبحانه:{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، ويقول سبحانه: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

وقد قلت حول هذه المعاني التي تؤكد أننا أهل سلام ما لم تفرض علينا الحرب ، فإن فرضت علينا فنحن رجالها :

من رامها سلمـــا فتلك يــد
أو رامها حربًا فنحن رجالهــا
لا نعتدي أبدًا ولا نرضى الخنا
إن الرجولة عندنـا عنوانهـــا
إحدى اثنتين ولا معقّب بعـده
النصرُ نصرٌ أو نُرى شهداءهـا

وإننا لعلى يقين تام في أن منزلة الشهيد من أعلى المنازل عند الله (عز وجل) ، فالشهيد مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، حيث يقول الحق سبحانه : {وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ الله وَكَفَى بالله عَلِيمًا}، ويقول سبحانه : {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، ويقول سبحانه: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}، ويقول سبحانه : {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }.

على أن الشهيد الحق هو من لقي الشهادة في ميدان القتال أو بسببه مدافعًا عن دينه ووطنه وعرضه وتراب وطنه مخلصًا لوجه الله لا لدنيا يصيبها أو لصالح جماعة متطرفة يتبعها ، كما تشمل الشهادة الحقيقية من استشهد في سبيل ذلك أثناء خدمته وأداء مهمته في إطار مؤسسات الدولة المعنية بذلك .

وقد أكدنا وما زلنا نؤكد أن إعلان حالة الحرب والسلم المعبر عنها في العصر الحديث بحالة التعبئة وعند الفقهاء بالجهاد القتالي ، ليست أمرًا متروكًا لعامة الناس ، وإنما هي سلطة الحاكم في ضوء

ما يقرر قانون كل دولة ودستورها ، وأنه ليس لأحد أن يخرج للقتال من تلقاء نفسه في غير ما ينظمه القانون والدستور ، وإلا لصار الناس إلى أبواب من الفوضى لا تسد .

وعليه فإن من مات على فراشه أو في بيته أو أي مكان آخر غير ما ذكرنا فإن إطلاق الشهادة عليه لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يكون إطلاق الشهادة عليه من باب المجاز ، بأن له منزلة من منازل الشهداء عند ربهم ، وذلك لمن مات مبطونًا أو محروقًا أو غريقًا أو نحو ذلك مما وردت به السنة المشرفة ، كما في الحديث الشريف ، حيث يقول رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) : " الشُّهَدَاءُ خَمسَةٌ : المَطعُونُ، وَالمبْطُونُ ، والغَرِيقُ ، وَصَاحبُ الهَدْم ، وَالشَّهيدُ في سبيل الله ".

وإما أن يكون الأمر محصورًا بين التَّزيّد والادّعاء والكذب والمتاجرة بالدين ، كهؤلاء الذين اعتادوا الكذب واستحلوه ، فراحوا يكذبون ويزورون ويصفون من مات حتف أنفه على مرأى ومسمع من العالمين بالشهيد كذبًا وافتراء ومتاجرة بالدين .

على أنني أؤكد أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء ،

والنماء والتنمية ، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح ، وتخلى الأنانيون عن نفعيتهم وأنانيتهم ، لانصلح حال البشرية جمعاء ، ولتغير وجه البسيطة، ولعاش العالم كله في سلام وأمان .

ويجب على كل عاقـل رشـيد مؤمن بالإنسانيـة محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير لا جانب الاحتراب والتدمير ، فكل ما يدعو إلى السلام والبناء وعمارة الكون يتوافق وصحيح الأديان ، وكل ما يدعو إلى القتل والتخريب والتدمير يتناقض مع سائر الأديان السماوية ، بل يتناقض مع كل الأخلاق والقيم الإنسانية والأعراف والمواثيق الدولية ، مما يتطلب منا جميعًا العمل معًا على ترسيخ وتأصيل كل معاني السلام والوقوف في وجه دعاة الحرب والدمار من أجل سعادة البشرية جمعاء وتحقيق أمنها وسلامها .

وهذا ما دعانا لفتح آفاق أوسع أمام كتابة جديدة للسيرة النبوية المشرفة فأعلنا في مسابقة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عن بحوث في السيرة النبوية ، وتقدم الدكتور/ أسامة فخري الجندي

المكلف بتسيير أعمال الإدارة العامة لشئون المساجد بديوان عام الوزارة ببحثه في السيرة النبوية تحت عنوان : " فقه السيرة النبوية قراءة جديدة "، فكان الحاصل على المركز الأول بين البحوث المقدمة لهذا الموضوع ، وقررنا تدقيقه وتنقيحه بمعرفة الإدارة المركزية للسيرة والسنة تحت إشرافنا ، متمنين له السداد والتوفيق ، ومشجعين له ولزملائه على القراءة الواعية لتراثنا ، وإعادة كتابته في ثوب جديد قشيب يراعي ظروف العصر والمستجدات .

* * *

مقدمة كتابنا
"مسيرة النقد الأدبي وقضاياه"

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد ، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبع طريقهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد :

فإن قضية الثقافة والفنون قضية تراكمية أشبه ما تكون بحال الإنسان والنبات ، فكلّ منهما ينمو نموًّا قد لا يُرى ولا يُلحظ بالعين المجردة ، لكنه يظلّ مستمرًّا ومطَّردًا حتى يستوي الطفل رجلًا ، وينتج النبات ثمرًا يانعًا.

وكما لا يستطيع الإنسان أن ينكر مراحل طفولته ، وأنها أحد أهم مراحل حياته التي ينعكس أثرها على كل ما يليها من مراحل الحياة ، فإن أحدًا لا يستطيع أن يُنكر أثر الجذور والمنطلقات المؤسِّسة لكل علمٍ ، ولا سيما في مجال العلوم والفنون والآداب .

والعلاقة بين التراث والمعاصرة في الفكر النقدي – شأن كثير من

المتقابلات – ليست علاقة عداء أو قطيعة ، ولن تكون، ولا ينبغي أن تكون ، وإن الوسطية التي نحملها منهجًا ثابتًا في كل مناحي حياتنا، ونجعل منها ميزانًا دقيقًا نزن بها أمورنا كلها ، إنما هي منهج ثابت ننطلق منه في كل جوانب حياتنا العلمية والفكرية والفلسفية والتطبيقية ، لا نحيد عن هذا المنهج قيد أنملة ، فقد قالوا: لكل شيء طرفان ووسط ، فإن أنت أمسكت بأحد الطرفين مَالَ الآخـر واختل توازنه ، وإن أنت أمسكت بالـوسط استقـام لك الطـرفـان ، ونحن مستمسكون بهذا الوسط وتلك الوسطية، لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير.

فنحن لا نتعصب للقديم لمجرد قدمه ، ولا نسلم زمام عقلنـا للتقليد الأعمى دون أن نمعن النظر فيما ينقل إلينا أو يلقى علينا ، فقـد ميز الله (عز وجل) الإنسان عن سائر الخلق بالعقل والفكر والتأمل والتدبر والتمييز ، ونعى على من أهملوا هذه النعم ولم يوفوها حقها، فقال (سبحانه) : { وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس: ٦٨]، وقال تعالى: { قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ } [الأنعام : ٥٠]، ويقول (سبحانه) : { كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى } [طه : ٥٤]، ويقول (عز وجل) : { وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ }[العنكبوت : ٤٣]، ولما نزل قوله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ }[آل عمران : ١٩٠] قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها" (رواه ابن حبان في صحيحه).

ولا يمكن أيضًا أن ننسلخ من هذا التراث العريق أو نقف منه موقف القطيعة، ونعمل في الهواء الطلق، فمن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل، بل علينا أن نأخذ من الماضي العريق النافع والمفيد الذي ننطلق به في الحاضر ونؤسس به للمستقبل .

وأؤكد أن في تراثنا النقدي من الفكر والثراء والتنوع ما يحتم علينا إعادة قراءة هذا التراث قراءة جديدة عصرية يمكن أن تشكل أساسًا قويًّا ومتينًا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي ، لا تنفصل عن تاريخها ولا عن هويتها ولا عن واقعها ، بل يمكن أن

تكون حال نضجها أحد أهم ملامح هويتنا الواقية وخصوصيتنا الثقافيـة في زمن العولمة والتيـارات النقـدية والفكرية والثقـافيـة الجارفة.

وكما أننا لا يمكن أن نرفض القديم لقدمه ، لا يمكن أيضًا أن نرفض الحديث لحداثته ، أو لكونه ثقافة الآخر أو المختلفِ ، أو كونه ثقافة وافدة على ثقافتنا، أو أن ندعو إلى الانكفاء على الذات والتمحور أو التقوقع حولها، فهذا عين الجمود والتحجر الذي نواجهه بكل قوة وحسم ، فثقافة أخرى تعني عقلًا آخر، وإضافةً جديدةً، ومادة جديرة بالاعتبار والتأمل والنظر، بل إنني لأدعو إلى إعمال الفكر وإمعان النظر في كل ما هو عصري أو حديث أو جديد، فنأخذ منه النافع والمثمر والمفيد، وما يشكل إضافةً حقيقيةً لثقافتنا، ويتناسب مع قيمنا وأخلاقنا وحضارتنا، ونتجاوز ما لا يتسق مع هويتنا الثقافية وقيمنا الراسخة.

كما يجب أيضًا ألا نتخلف عن الركب ، فنتشبث بآراء ونظريات ثبت عدم جدواها عند الغربيين أنفسهم ، فدعا نقادهم إلى ضرورة مراجعتها ، أو تخلوا هم عنها وبحثوا عن نظريات أو رؤى أخرى

جديدة رأوها أكثر دقةً وملاءمةً ونفعًا ، أو وجدوا فيها خيط نجاة جديد يخلصهم من تعقيدات وفلسفات بعض النظريات التي خرجت بالنقد الأدبي عن لبابه إلى معالجات انحرفت بالنص الأدبي عن مساره الطبيعي إلى مسارات أخرى ربما كان من الأجدى تطبيقها على علوم وفنون أخرى غير النص الأدبي ، إذ تبقى عظمة وخصوصية النص الأدبي والنقدي في كون كل منهما نصًّا ينطق أدبًا ويفيض أدبًا ويشع أدبًا قبل أي شيء آخر .

وتؤرخ هذه الموسوعة للجذور التراثية للنقد الأدبي العربي من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي، وتتناول جانبًا هامًّا من قضايا النقد الأدبي الحديث ، وتناولت فيها مسيرة النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي ، محاولًا إبراز أهم الملامح والرؤى النقدية في كل عصر من هذه العصور ، بمقاييس هذه العصور لا بمقاييس غيرها.

وحاولت أن أقف عند بعض القضايا النقدية المعاصرة ذات الجذور التراثية ، وبعض القضايا التراثية فأعيد قراءتها في ضوء معطيات النقد الحديث ، لأؤكد من خلال تناولي لهذا وذاك أن

العلاقة بين القديم والحديث يمكن أن تكون علاقة تكاملية، وليس شرطًا أن تكون علاقة إقصاء أو صراع ، وأنه يمكننا أن ننسج من هذا وذاك نظريةً عربيةً عصرية متكاملةً في النقد الأدبي.

وتأتي هذه الموسوعة في مقدمة ، وتمهيد حول مفهوم النقد الأدبي وعدة الناقد ، وأحد عشر فصلًا وبابين ، وخاتمة ، على النحو التالي:

الباب الأول : مسيرة النقد الأدبي :

ويتضمن أربعة فصول :

الفصل الأول: الجذور التراثية للنقد في العصر الجاهلي:

وفيه تناولت مظاهر النقد الأدبي وطبيعته في هذا العصر، فتحدثت عن قضايا : التنقيح والتثقيف ، والمفاضلة بين الشعراء ، والاستحسان والاستهجان ، والاختيار أو الانتخاب ، مبينًا أن النقد في هذا العصر كان – في جملته– نقدًا فطريًّا ذاتيًّا يعتمد على الذوق أكثر من اعتماده على أي شيءٍ آخر.

الفصل الثاني: الجذور التراثية للنقد في عصر صدر الإسلام:

وفي هذا الفصل ذكرت ما يؤكد أن النقد الأدبي قد خطا خطوةً إلى الأمام، حيث تضمَّنت بعض أحكامه النقدية شيئًا من التفصيل

أو التعليل، كما أن الإسلام قد وجَّه الأدباء والنقاد وجهةً دينيةً وخُلُقيةً، ودعاهم إلى مراعاة السهولة والوضوح ، والبعد عن التكلف والحوشي وسجع الكهان؛ فانعكس ذلك على رؤاهم ونظراتهم النقدية .

الفصل الثالث : الجذور التراثية للنقد في العصر الأموي:

وفيه تحدثت عن عوامل ازدهار النقد وأبرز اتجاهاته اللغوية والأدبية ، مؤكدًا أن هذا العصر قد شهد حركةً نقديةً قويةً مهَّدت لظهور النقد المنهجي في العصر العباسي.

الفصل الرابع : الجذور التراثية للنقد في العصر العباسي ، وعوامل ازدهار الحركة النقدية في هذا العصر .

وفيه تناولت عوامل ازدهار الحركة النقدية في هذا العصر، ثم تحدثت عن ظهور النقد المنهجي ، وعن كتابين من أبرز كتبه في هذا العصر، هما: "الموازنة" للآمدي ، و"الوساطة" للجرجاني .

الباب الثاني : من قضايا النقد الأدبي القديم .

ويتضمن سبعة فصول :

الفصل الأول : من قضايا النقد الأدبي القديم .

وفي هذا الفصل عرضت لثلاث قضايا من أهم قضايا النقد القديم ، وهي: اللفظ والمعنى ، وخطأ المعاني وصوابها في ضوء كتاب "الصناعتين" لأبي هلال العسكري ، والاتجاه البلاغي في النقد الأدبي القديم.

الفصل الثاني : المعادل اللغوي .. دراسة تطبيقية في ضوء النص القرآني.

وفي هذا الفصل حددت مفهوم المصطلح ، وتحدثت عن جذوره التراثية ، وتناول النقاد المحدثين له ، مع نماذج تطبيقية سواء في مجال المفردة القرآنية ، أم في مجال سياق النص والبنى الأسلوبية من خلال التطبيق على بعض المفردات والأساليب في آي الذكر الحكيم .

الفصل الثالث: دلالة السياق وأثرها في النص الأدبي .. دراسة نقدية :

وفيه تحدثت عن أهمية الوعي بقضية السياق، والفرق بين سياق النص وسياق الموقف ، ونظرة كل من القدماء والمحدثين إلى السياق وآليات تناولهم له.

الفصل الرابع: العدول بين القدماء والمحدثين .. دراسة نقدية:

وفي هذا الفصل: تحدثت عن تناول القدماء والمحدثين للعدول، مؤكدًا أن فهم هذا المصطلح يشكل منطلقًا رئيسًا لفهم اللغة الأدبية والبنى الأسلوبية التي يعد الخروج على النمط المثالي المألوف من أهم خصائصها، وبينت أن كثيرًا من تخريجات البلاغيين على خلاف الأصل أو خلاف مقتضى الظـاهر لا تكاد تفهم فهمًا دقيقًا إلا في ضوء الوعي النقدي لمفهوم العدول.

الفصل الخامس : جدلية الحضور والغياب بين القدماء والمحدثين .. دراسة أسلوبية نقدية:

وفيه تحدثت عن الأسرار الكامنة وراء علاقات الحضور والغياب التي يمكن أن يسهم فهمها في تشكيل رؤية ناضجة لدى كل من المبدع والناقد بأهمية إعمال الفكر في سلسلة البدائل التي يمكن أن ترقى بالنص إلى مستوى أفضل، وتجنب المبدع أو المنشئ كثيرًا من الملاحظات النقدية التي يمكن أن يتعرض لها عمله إذا جاء عفو الخاطر دون إعمال العقل في هذه البدائل ، أو دون مراعاة الدقة في اختيار أنسبها وأقربها إلى بنية النص وسياقه.

الفصل السادس: الفكر النقدي في المثل السائر (لابن الأثير) في ضوء النقد الحديث:

وفيه تحدثت عن أهم ملامح الفكر النقدي عند ابن الأثير ، ولا سيما مقاييسه في الحكم على المفردات والجمل ، ونظرته إلى العلاقة بين المفردة والجملة من خلال مفهومه للنظم ومفهومه للسياق .

الفصل السابع : وحدة القصيدة من النفسية إلى الموضوعية :

وفيه تحدثت عن نظرة القدماء والمحدثين إلى وحدة القصيدة ، سواء من تطلبها وحدة نفسية أو شعورية أو موضوعية أو عضوية .

الخاتمة .

والله من وراء القصد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

مقدمة رسالة علمية (*)
الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي .. عرض ودراسة وموازنة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب ، العزيز الرحيم ، والصلاة والسلام على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي وصل من قطعه ، وعفا عمن ظلمه ، وأعطى من حرمه ، وأحسن إلى من أساء إليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن سلك طريقهم إلى يوم يبعثون.

وبعد :

فحين وفقني الله لتسجيل درجة العالمية "الدكتوراه" كنت قد حددت الاتجاه عازمًا على أن تكون دراستي دراسة تراثية، إيمانًا مني بقيمة هذا التراث وعظمته ، بل روعة وإعجابًا بما قدمه أسلافنا العظماء من فكر ثاقب ، وأدب رائع قلَّ أن تجود القرائح بمثله.

وهذه حقيقة لا ينكرها إلا جاحد أو معاند من هؤلاء الذين يعملون على النيل من أدبنا العربي ، قاصدين ضرب الإسلام في شخص العرب.

(*) رسالتنا للدكتوراه.

وقد تبنى هذا الأمر أناس فتنوا ببريق الحضارة الغربية وزخارفها المادية ، فأخذوا يرددون مع أرباب هذه الحضارة القول بأن التشبث بالإسلام والعروبة يعد سببًا من أقوى الأسباب التي أدت إلى تخلف أمتنا وتأخر مكانتها بين الأمم ، متناسين أو متجاهلين أن حضارتنا العربية الإسلامية قادت العالم وأضاءت ربوعه قرونا طويلة ، وأن أبناءها قادرون على مواصلة المسيرة لو أن الله هيأ لهم رشدًا من أمرهم.

إن تراثنا العريق - مع تلك الهجمات الشرسة ، والطعنات المتتابعة التي توجه إليه من أعدائه تارة ، ومن بعض أبنائه أخرى - لفي حاجة ملحة إلى جهود أبنائه المخلصين الذين يشمرون عن سواعدهم ، ويبذلون قصارى جهدهم ليعيدوا قراءته ويكشفوا جوانب الإبداع فيه ، حتى يدرءوا شُبَهَ الطاعنين ، ويردوا كيدهم في نحورهم ، وليتمن الله هذا الأمر ولو كره المجرمون.

وقد نظرت في الكتب والدراسات الأدبية القديمة فرأيت أنها قد عنيت بجمع الأشعار ، والأخبار ، وما يتعلق بحياة الشعراء وبيئاتهم أكثر من عنايتها بالفنون الأدبية.

وليس من حقنا أن نعيب عليهم مناهجهم ، أو أن نحاكمهم في ضوء المفاهيم الحديثة والعصرية ، بل علينا أن نقدر أنهم أبناء عصورهم ، وأننا مطالبون بأن نحكم على نتاجهم الفكري في إطار زمانهم ، وأن نبدأ من حيث انتهوا ، وأن نجتهد لزماننا كما اجتهدوا لزمانهم .

وهـذا ما قام به بعض الباحثين والكتاب الذين تناولوا فنون الشعر وأغراضه بالبحث والدراسة ، فصارت المكتبة الأدبية تضم كثيرًا من الكتب والرسائل في فنون الشعر المختلفة من الغزل ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء ، والوصف...

ولكن شعر الاعتذار كان واحدًا من الفنون الشعرية التي لم تأخذ نصيبها بين هذه الدراسات ، مما دفعني لاختياره ودراسته تحت عنوان : "الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي ... عرض ودراسة وموازنة"

وحتى لا أغمط أحدًا حقه فإني أشير - بادئ ذي بدء - إلى أهم الدراسات التي سبقت في هذا الموضوع ، والتي تتمثل فيما يلي:

أ- العفو والاعتذار لأبي الحسن محمد بن عمران العبدي المعروف بالرَّقام البصري (صاحب ابن دريد اللغوي) تحقيق د/ عبد القدوس أبو صالح ، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

وهذا الكتاب يعد من أهم المصادر القديمة التي تناولت فن الاعتذار ، وقد أفدت منه إفادة طيبة ، غير أنه لم يتناول من شعر الاعتذار إلا القليل ؛ لأنه - في الواقع - إنما كان يعنى بإبراز فضيلة العفو ، وتناول الاعتذار باعتباره سببًا من أسبابه ، ووسيلة من وسائله ، ولو كان الاعتذار - في حد ذاته - هدفًا من أهدافه ما أهمل النابغة وهو أستاذ هذا الفن ، ولا البحتري وهو الرجل الثاني بعد النابغة ، فإنه لم يذكر من شعر النابغة في الاعتذار سوى بيت واحد جاء ذكره عرضًا على لسان حجر ابن سليمان الكاتب ، أما اعتذاريات النابغة إلى النعمان فلم يشر إليها من قريب أو بعيد ، والبحتري لم يرد له ذكر في هذا الكتاب ، كما أنه لم يشر إلى اعتذاريات عدي بن زيد - وهو صنو النابغة في العصر الجاهلي في هذا الفن - ولم يذكر له خبرًا يتصل بهذا الغرض ، أو بيتًا واحدًا فيه.

يضاف إلى ذلك أنه عني بجمع الأخبار ، وتسجيل المواقف أكثر من عنايته بجمع الأشعار ، وأن عنايته بالجمع شغلته عن التحليل أو التعليق ، فالرجل قد رسم لنفسه منهجًا ، وسار عليه ، وقد وفق فيما رسمه لنفسه فجمع الكثير ، وأنار الطريق لمن أتى بعده من الكتاب والباحثين .

ب- الاعتذار في الأدب العربي حتى العصر العباسي ، د/ محمد حامد شريف ، طبع مطبعة الرضا بطلخا سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٩م.

ولا شك - أيضا - أني أفدت من قراءته ، وانتفعت به في بحثي على أني أشير إلى الآتي:

١- أن دراسته لشعر الاعتذار كانت موجزة ، فقد جمع بين العصرين الجاهلي وصدر الإسلام ، وتناولهما في ثلاثين صفحة من القطع المتوسط ، وجمع بين العصرين الأموي والعباسي ، وتناولهما - على امتدادهما - في ست وثلاثين صفحة فحسب.

٢- أنه لم يكن قصرًا على الشعر ، فقد تناول الاعتذار في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وفي المواقف القصصية

التاريخية ، وفي التوقيعات والرسائل وارتكز على ذلك ارتكازًا كبيرًا.

٣- أنه لم يستقص ألوان الاعتذار ، فقد تابع الرَّقام في العناية بالاعتذار إلى الملوك وعمالهم ، وأضاف إلى ذلك شيئا يسيرًا ، ولم يشر مجرد إشارة إلى الاعتذار عن الفرار أو الشيب ، أو سائر العيوب الخلقية والخلقية .

٤ - أنه ارتضى لنفسه منهجًا لم يشأ أن يجعل الموازنة جزءًا منه أو جانبًا من جوانبه ؛ لذا لم يكن هذا الكتاب كافيًا في دراسة هذا الفن .

وقد استعنت بالله - عز وجل - في تناولي موضوع الرسالة على لم شعثه وسبر أغواره ، فعمدت إلى دواوين الشعراء ، والمجموعات الشعرية ، وكتب التراجم والطبقات ، وكتب التاريخ والسير ، وكتب الأيام والوقائع ، وكتب الأنساب ، مستعينًا مع ذلك بالدراسات الحديثة والعصرية ، أطالع هنا وهناك في تؤدة وأناة ، يدفعني إلى ذلك حب البحث ورغبة التحصيل ، متخذًا من هذا البحث صديقًا حميمًـا يرحل حيث أرتحل، ويقيم حيث أقيم ، حتى

أذن الله بإخراجه في هذه الصورة التي أرجو لها الرضا والقبول.

وقد بنيته من مقدمة ، وتمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة ، ثم فهرست للآيات والأحاديث والأمثال والقوافي ، والشعراء ، والموضوعات.

أما المقدمة فتحدثت فيها عن سبب اختيار هذا الموضوع ، والدراسات التي سبقته والخطة والمنهج.

وأما التمهيد فعرضت فيه لمفهوم الاعتذار عند اللغويين والأدباء مناقشًا آراءهم ومرجحًا ما يدعم الدليل ترجيحه.

وأما الفصل الأول : فيتناول " الاعتذاريات في الشعر العربي في العصر الجاهلي".

وفيه تحدثت عن أولية هذا الفن ، مبينًا أن النابغة الذبياني لم يكن أول من طرقه ، وإن كان قد أكثر منه ، وأسهب فيه حتى عرف به ، وصار ذكره مصاحبًا له ، فلا يكاد يذكر النابغة إلا ويذكر معه الاعتذار ، ولا يذكر الاعتذار إلا ويذكر معه النابغة.

وقد ناقشت رأي من أسندوا إليه الأولية في هذا الفن ، ورأي من أسندها إلى عدي بن زيد ، مؤكدًا أن عمرو بن قميئة كان أسبق

إليه منهما ، متخذًا من التاريخ الحجج والأسانيد التي تدعم ما انتهيت إليه.

ثم عرضت ألوان الاعتذار في هذا العصر ، فبدأت بالاعتذار إلى الملوك مراعيا الترتيب الزمني للشعراء داخل هذا المبحث ، فتحدثت عن اعتذار ابن قميئة فعدي بن زيد ثم النابغة ، وأردفت ذلك بموازنة بين عدي والنابغة قطبي الاعتذار في هذا العصر.

ثم تحدثت عن الألوان الأخرى كاعتذار المقاتلين والأبطال والاعتذار الإخواني الذي كان قليلا في هذا العصر ، مما يؤكد أن العرب في العصر الجاهلي - وبخاصة أهل البادية - لم يكونوا يعتذرون إلا تحت ضغط ظروف قاهرة ، كما تحدثت عن الاعتذار عن الشيب ، وختمت هذه الألوان باعتذار المحبين.

وأما الفصل الثاني : فيتناول "الاعتذاريات في الشعر العربي في عصر صدر الإسلام".

وفيه بينت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان حليمًا واسع الصدر فتح الباب واسعًا أمام الشعراء الذين دأبوا على النيل من دعوته محاولين عرقلة طريقها ، ثم قبل منهم ، وعفا عنهم .

وقد أفردت الاعتذار إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) وآل بيته الأطهار بمبحث خاص، ولم أجعله داخلًا في الاعتذار إلى الملوك ؛ لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم وأشرف من أن يكون ملكًا، أو يسلك في عداد الملوك والرؤساء.

ثم تحدثت عن الاعتذار إلى الخلفاء واعتذار المقاتلين ، والاعتذار للأصدقاء ، وختمت هذا الفصل بالحديث عن البعد الذي أضافه هذا العصر إلى فن الاعتذار.

وأما الفصل الثالث : فعن "الاعتذاريات في الشعر العربي في العصر الأموي".

وفيه بيَّنت أن الحياة السياسية والاجتماعية قد تغيرتا عما كانتا عليه في صدر الإسلام ، وكان لذلك أثره في نفوس الشعراء الذين وقف بعضهم مؤيـدًا للأمويين ووقف بعضهم معارضًا أو مناوئـا لهم ، فتحدثت عن الاعتذار إلى الخلفاء موازنًا بين اعتذار عبد الله ابن الحجاج الثعلبي ، ونصيب بن رباح ، والفرزدق ، وطريح بن إسماعيل الثقفي.

ثم ألمحت إلى أن ظروف الحياة الجديدة قد اقتضت أن يطلق الأمويون أيدي بعض الولاة في شئون ولاياتهم مما أعطى هؤلاء

الولاة قوة أرهبت خصومهم ، وجعلت وعيدهم أمرًا مرًّا على من ينصب عليه ، فأقبل عليهم بعض الخصوم خاضعين مستسلمين يطلبون العفو والصفح.

ثم تحدثت عن اعتذار أو احتجاج الشعراء السود الذين أخذت بعض الأعين تنظر إليهم شذرًا في هذا العصر بعد أن كان الإسلام قد سوى بينهم وبين غيرهم ، فحفظ لهم كرامتهم وكفاهم مؤنة الرد.

ثم أعقبت ذلك بالحديث عن أثر التغير السياسي والاجتماعي الذي حدث في هذا العصر على شكل القصيدة الاعتذارية ومضمونها.

وأما الفصل الرابع : فتناولت " الاعتذاريات في الشعر العربي في العصر العباسي ".

وفيه تحدثت عن الاعتذار إلى الخلفاء ، وجاء ذلك في ثلاثة مباحث : اعتذار المخضرمين الذين فرضت عليهم ظروف الحياة الجديدة أن يتحولوا - بتحول الأيام- عن بني أمية إلى بني العباس، واعتذار بعض المناوئين للدولة العباسية ، ثم اعتذار الشعراء الموالين لها.

ثم تحدثت عن الاعتذار إلى الوزراء والولاة - وبخاصة الفرس - الذين تبوءوا مكانة خطيرة كادت تعصف بالدولة كلها لولا أن الله عجل بهم على يد الخليفة الرشيد ثم عاد نجمهم يلمع مرة أخرى حين استعان بهم الخليفة المأمون على قتال أخيه الأمين.

ثم تناولت لونين آخرين تأثرا - إلى حد كبير - بالحياة الاجتماعية والثقافية في هذا العصر ، وهما : الاعتذار عن الشيب، واعتذار المحبين.

وختمت هذه الألوان بالحديث عن اعتذار التائبين ، معقبا على ذلك كله بأثر الحياة العباسية في فن الاعتذار.

وأما الفصل الخامس فعنوانه : " دراسة فنية لشعر الاعتذار " .

وجاء في ثلاثة مباحث على النحو التالي :

- المبحث الأول : العاطفة .

- المبحث الثاني : اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون - وجاء في مطلبين :

أحدهما : المعنى.

والآخر : لغتهم – مفردات وتراكيب.

– المبحث الثالث : وحدة القصيدة.

وقد عرضت فيه لآراء القدماء والمحدثين في هذه القضية مناقشًا آراء هؤلاء وأولئك ، كما رددت على من وصفوا القصيدة العربية بأنها مفككة الأوصال ، وقالوا بإعفائها حتى من الترابط النفسي.

ثم بينت أن القصيدة الاعتذارية قد تمثلت في نمطين :

أحدهما– وهو الغالب – : سار على النسق التقليدي.

والآخر : تجديدي هجم الشاعر فيه على الموضوع بلا تمهيد ولا توطئة.

ولكن واحدًا من النمطين لم يخل من الوحدة الفنية أو الترابط النفسي ، فجاءت القصائد بناء ملتحمًا ، ينهض متماسكًا بالغرض الذي أراده الشاعر .

ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة لتلخص أهم نتائج هذا البحث ، وتبرز الجديد فيه.

وقد سرت في هذا البحث على ضوء المنهج التكاملي ، مستفيدًا بالدراسات النقدية ، والتاريخية ، والنفسية حسب متطلبات كل مبحث أو مطلب.

وجمعت بين العرض والموازنة ، ودمجت الموازنة في العرض ، وراعيت توزيع النصوص بين فصول هذا البحث ، فاد خرت بعضها للفصل الأخير حتى لا أضطر إلى التكرار أو كثرة الإحالات .

وإني لأقدّر أن هذا إنما هو جهد المقل ، وأنها نقطة البداية عازمًا على الصبر والمثابرة ، وبذل المزيد من الجهد في خدمة لغتنا العربية العريقة ، متتبعًا في ذلك هدي أساتذتي ، سائلًا الله أن أكون عند حسن ظنهم .

فإن كنت قد وفقت فذلك فضل الله ، وهو أملي الذي من أجله أجهدت نفسي ، وأسهرت ليلي ، وإن كانت الأخرى فذلك من نفسي ، وحسبي أني حاولت واجتهدت دون أدنى ميل إلى الراحة أو الكسل وكلي أمل فيمن لا يضيع أجر العاملين.

* * *

المبحث الثالث:

خواتيم وخلاصات

وفيه :

١ـ خاتمة كتابنا : مسيرة النقد الأدبي وقضاياه .

٢ـ خاتمة رسالتنا للدكتوراه : الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي.. عرض ودراسة وموازنة.

٣ـ خلاصات تعريفية لبعض إصدارات سلسلة "رؤية".

خاتمة كتابنا
"مسيرة النقد الأدبي وقضاياه"

وهذا نصها :

١) أن العقلية العربية لم تكن أبدًا عقلية جامدة ، بل كانت عقلية واعية وفطنة ناضجة، فهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان ، وإن اقتضت طبيعة حياتهم الأولى أن يكون نقدهم فطريًّا ذاتيًّا .

٢) أن الجذور التراثية لنقدنا الأدبي العربي قد شكلت منطلقًا ومرتكزًا قويًّا لنظريات النقد الأدبي العربي في عصوره المختلفة وصولًا إلى العصر الحاضـــر .

٣) أننا لو أعدنا قراءة تراثنا النقدي قراءة واعية منصفة لوقفنا على كثير من كنوزه ونفائسه، واتضح لنا - بما لا يدع مجالًا للشك - أن الحياة الأدبية العربية في عصرها الذهبي كانت تموج بتيارات وحركات نقدية لا تقل حيوية وأهمية عن حركة الحياة الأدبية والنقدية في القرنين العشرين والحادي والعشرين سواء في أوروبا أم في عالمنا العربي، وأن القضايا التي تناولها النقاد العرب القدماء لم تمت بموتهم ، فإن الكثير منها ما زال حاضرًا بقوة في ثقافتنا

الأدبية والنقدية، وما زال قادرًا على تشكيل منطلق قوي ومتين لنظرية عربية حديثة في النقد الأدبي تنظر بعين الاعتبار إلى الماضي والحاضر معًا، بحيث لا تنكفئ على القديم ولا تنسلخ منه ، ولا تنعزل عن الحاضر والآخر الثقافي، ولا تذوب في هذا الآخر ذوبانًا يفقدها خصوصيتها وتميزها، بل تنتقي من هـذا وذاك النافع والمفيد، الذي يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وثقافتنا العربية والإسلامية ، بحيث تصبح هذه النظرية – عند نضجها – هويتنا الواقية في مواجهة تيارات العولمة الجارفة العاتية.

٤) أن طريقة التعبير عن الأفكار أو العواطف أو الأحاسيس إذا جاءت في أعلى درجات المشاكلة وإصابة المحزّ في التوافق والمواءمة بين اللفظ والمعنى ، سواء تضمنت رمزًا أو قناعًا أم لم تتضمن شيئًا من ذلك ؛ فإننا يمكن أن نطلق عليها مصطلح "المعادل التعبيري" وهو المصطلح الأعم .

٥) أن هذه الطريقة إذا تضمنت رمزًا أو قناعًا أو خلق موقف أو سلسلة من المواقف تعادل العواطف والمشاعر والأفكار – فإننا يمكن أن نطلق عليها مصطلح " المعادل الموضوعي" فتكون

العلاقة بينه وبين "المعادل التعبيري" علاقة عموم وخصوص مطلق، فكل معادل موضوعي هو معادل تعبيري ولا عكس .

٦) أن طريقة التعبير اللغوي إذا لم تتضمن رمزًا ولا قناعًا ، وكانت في قمة المشاكلة بين الألفاظ ومعانيها – فإننا يمكن أن نطلق عليها مصطلح "المعادل اللغوي" وتكون العلاقة بينه وبين "المعادل التعبيري" علاقة عموم وخصوص مطلق- أيضًا -، فكل معادل لغوي هو معادل تعبيري ولا عكس.

٧) أن المعادل اللغوي إذا قصد به قمة المشاكلة بين اللفظ ومعناه فإننا يمكن أن نطلق عليه مصطلح " المعادل اللفظي"، وإذا قصد به قمة المشاكلة بين الجملة أو العبارة وما تعبر عنه من عواطف ومشاعر وأفكار فإننا يمكن أن نطلق عليه مصطلح "المعادل الأسلوبي".

٨) أن قضية المعادل اللغوي وإن لم يتناولها نقادنا القدماء كمصطلح نقدي فإنها ضاربة بجذور راسخة في تنظيرهم لقضية المواءمة والمشاكلة بين الألفاظ ومعانيها، وفي تطبيقاتهم لهذه القضية .

٩) أنني اخترت التطبيق على بعض جوانب النص القرآني ؛ لأن

القرآن الكريم هو – جملة وتفصيلًا – في أعلى درجات البلاغة والبيان ، وعلى ذروة سنام قمة المشاكلة بين الألفاظ ومعانيها ، وكيف لا يكون كذلك وهو كلام رب العالمين ، ومعجزة الإسلام الكبرى؟ لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} (الجن : ١-٢)، وما أن سمع أحد الأعراب قوله تعالى : {وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (هود : ٤٤)، حتى انطلق لسانه قائلًا: أشهد أن هذا كلام رب العالمين لا يشبه كلام المخلوقين، وإلا فمن هذا الذي يستطيع أن يأمر الأرض أن تبلع ماءها فتبلع؟ ويأمر السماء أن تكف عن إنزال الماء فتقلع؟!

ولعل هذه البلاغة العالية التي لا تدانيها بلاغة هي التي دفعت كاتبًا كطه حسين إلى أن يقول : الكلام شعر ونثر وقرآن، ذلك لأن القرآن الكريم وإن كان من جنس كلامهم وحروفهم إلا أنه نسيج وحده في الفصاحة والبلاغة والبيان ، إذ لا تكاد ألفاظه تصل إلى الأسماع حتى تكون معانيه قد وصلت إلى القلوب ،

فيهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة ، فلا تدري أجاءك من جهة لفظه أم من جهة معناه ، وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول : { وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت : ٤١-٤٢).

١٠) أن أدباءنا ونقادنا القدماء كانوا على وعي كبير بالسياق وأثره في بنية النص ، وإن لم يطلقوا عليه هذا الاسم ، أو يعرفوه بحد أو رسم ، فقد راعوا ما يقتضيه السياق سواء في إشاراتهم إلى ضرورة مراعاة الحال والمقام ، أم في حديثهم عن النظم، أم في ثنايا دراساتهم التطبيقية .

١١) أن ما كتبه البلاغيون والنقاد القدماء حول السياق يعد أساسًا قويًّا للدراسات الأسلوبية والسياقية الحديثة والعصرية، وبخاصة كتابات عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، وكتابات ابن الأثير في المثل السائر ، وأن كثيرًا من الكتاب المعاصرين المنصفين يعدون الإمام عبد القاهر الأب الروحي للدراسات الأسلوبية والسياقية ، ويعدون دراسته للنظم منطلقًا قويًّا لكثير من قضايا النسق الحداثي .

١٢) أن النقاد المحدثين والمعاصرين فصلوا ما أجمله النقاد القدماء وحاولوا تقنينه، فبعد أن كان الأمر – في جملته – يدور حول النظم ومقتضى الحال والمقام وما شابه ذلك صار عند النقاد المعاصرين أكثر تفصيلًا ، فتحدثوا عن سياق النص بما يشمله من بنى صوتية وتصريفية ومعجمية وتركيبية ، وعن سياق الموقف وسياق الثقافة.

١٣) أن الفارق بين رؤية القدماء والمعاصرين للسياق هو أن القدماء قد انصبت عنايتهم على دراسة الكلمة وموقعها من الجملة ، أو دراسة الجملة وموقعها من النص ، وما يعتريها من تقديمٍ أو تأخيرٍ ، أو حذفٍ أو ذكرٍ ، أو فصلٍ أو وصلٍ ، ونحو ذلك ، في حين تطلب المحدثون والمعاصرون تجاوز هذه النظرة الجزئية إلى دراسة سياقية تنظر بعين الاعتبار إلى النص برمته، وتعمد إلى ربط السياقات المختلفة بعضها ببعض، ولا تقتصر على مجرد الربط بين هذه السياقات، بل تخرج من هذا الربط بسمات وخصائص متميزة، غير أن دراساتهم التطبيقية وإن حاول بعضها مقاربة بعض النصوص بصفة شمولية فإن أكثرها لا يكاد يخرج في مقاربته التحليلية أو النقدية عن تناول القدماء لنصوصهم .

١٤) من خلال رؤيتنا للدراسات الأسلوبية ، والنصية ، والبنيوية ، والتفكيكية ، وغيرها ، نؤكد أن نظرية السياق من أهم النظريات في دراسة وتحليل النصوص ؛ لأنها وإن كانت تعنى بالنص من داخله ، وتركز على دراسة بناه ولبناته الصوتية والمعجمية والدلالية والبلاغية والجمالية فإنها لا تلغي المعطيات والمؤثرات الخارجية التي يمكن أن تضيء بعض جوانبه ، بل لا يمكن أحيانًا فهم بعض جوانب أو أسرار النص إلا بالوقوف على هذه المعطيات .

١٥) أن الوعي بالسياق ودراسته يفيد إفادة بالغة في دراسة النص القرآني سواء في تفسيره تفسيرًا تحليليًّا أم في تفسيره تفسيرًا موضوعيًّا ينظر إلى الآيات في ضوء سياقها الأكبر ومقاصدها التشريعية العامة، كما أنه يفيد الأصوليين والفقهاء في بناء قواعدهم الكلية واستنباط أحكامهم التفصيلية ، كما أنه لا غنى عن دراسته للأديب المبدع والأديب الناقد على حد سواء .

١٦) أن مصطلح " العدول " يعني الخروج عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى أو عن أسلوب إلى أسلوب آخر، لخصوصية يقتضيها المقام أو السياق .

١٧) أن العدول بهذا المفهوم ضارب بجذور راسخة في أعماق تراثنا الأدبي والنقدي ، وأن أدباءنا ونقادنا القدماء كانوا على وعي كبير بمفهوم العدول ، وأنهم أفادوا منه في كثير من تطبيقاتهم النقدية والبلاغية ، وأن تناولهم له كان في ضوء ما يقتضيه السياق دون تكلف أو اعتساف .

١٨) أن تناول المحدثين المنصفين للعدول لا يخرج عن تناول القدماء له إلا في بعض التفصيلات وشيء يسير من التنظير الذي تقتضيه طبيعة العصر .

١٩) أن فهم هذا المصطلح يشكل منطلقًا رئيسًا لفهم اللغة الأدبية والبنى الأسلوبية التي يعد الخروج على النمط المثالي المألوف من أهم خصائصها ، ويسهم – إلى حد كبير – في فك شفرات هذه اللغة وتلك البنى .

٢٠) أن كثيرًا من تخريجات البلاغيين على خلاف الأصل أو خلاف مقتضى الظاهر لا تكاد تفهم فهمًا دقيقًا إلا في ضوء الوعي النقدي لمفهوم العدول .

٢١) أن مفهوم العـدول جاء واضحًـا جليًّـا عند من استخدمه من

النقاد القدماء أو المحدثين المنصفين غير المتحاملين على تراثهم ، في حين أدى تفنن بعض النقاد والكتاب الحداثيين وما بعد الحداثيين في اختيار مصطلحات بديلة ولجوء بعضهم إلى نقل مصطلح غربي بديل إلى ارتباك وفوضى في فهم هذا المصطلح ، فجاء محمَّلًا بما ينبئ عن رؤيتهم الحانقة – أو المتوجسة على أقل تقدير– تجاه تراثنا اللغوي والأدبي ، فكانت مصطلحات عدة ، مثل: الانحراف ، الانزياح ، الانتهاك ، الشناعة ، العصيان ، الإطاحة ، خرق السنن ، وغير ذلك من المصطلحات التي تحمل معنى الثورة والتمرد تارة ، والهدم والتدمير تارة أخرى ، وهو ما صرح به بعض كتاب هذه الحداثة .

٢٢) أن فهم الأسرار الكامنة وراء علاقات الحضور والغياب يمكن أن يسهم في تشكيل رؤية ناضجة لدى كل من المبدع والناقد بأهمية إعمال الفكر في سلسلة البدائل التي يمكن أن ترقى بالنص إلى مستوى أفضل ، وتجنب المبدع أو المنشئ كثيرًا من الملاحظات النقدية التي يمكن أن يتعرض لها عمله إذا جاء عفو الخاطر دون إعمال العقل في هذه البدائل ، أو دون مراعاة الدقـة في

اختيار أنسبها وأقربها إلى بنية النص وسياقه.

وتبلغ الدقة ذروتها حين يبحث الناقد في سلسلة البدائل المتاحة فيعود بعد جهدٍ ولأيٍ إلى البنية التي اختارها المبدع، حيث لا يصلح في موضعها غيرها، ولا يقوم مقامها بنية سواها.

كما أن فهم هذه الأسرار فهمًا دقيقًا يسهم - إلى حد كبير - في تصور ما يحمله الحاضر من دلالة على الغائب ، أو تشرّب لمعناه ، ويساعد على ردم الفجوة بين الحاضر والغائب ، بين المتجلي والخفي، بين المذكور والمسكوت عنه ، وفق تعبيرات الحداثيين المتعددة .

٢٣) أن نقادنا القدماء كانوا على وعي كبير بمفهوم كثيرٍ من المصطلحات النقدية الحديثة ، وإن لم يخوضوا في تعريفها ، أو يقفوا عند تحديدها ذلك التحديد العلمي الدقيق الذي اقتضته طبيعة الدراسات النقدية الحديثة وسُنّة التطور العلمي.

فعلاقات الحضور والغياب كانت ماثلة بوضوح في أذهانهم ، وقد أفادوا منها في تحليل كثيرٍ من النماذج الأدبية لاستخلاص ما فيها من ألوان الجمال أو رصد ما فيها من مظاهر الركاكة والضعف .

وبعبارة أخرى : كانت هذه الخاصية من أهم مظاهر تقييم العمل الأدبي عندهم ، وهو ما يؤكده بعض النقاد المحدثين والمعاصرين.

على أن المصطلح المتكرر في وصف العلاقات الأفقية أو المحور التتابعي/ التعاقبي عند نقادنا القدماء – هو (الجوار) أحيانًا و(الضم) أحيانًا أخرى .

والمصطلح المتكرر في وصف العلاقة الرأسية أو محور الاستبدال – عندهم – هو (الاختيار) ، وهو ما يؤدي المعنى الحديث بالكامل وفق تعبير بعض النقاد الحداثيين .

٢٤) أن بعض البنى اللغوية أو الأسلوبية إنما يبرز دورها الأسلوبي بغيابها أكثر من حضورها ، فما من بنيةٍ لغويةٍ أو أسلوبيةٍ حذفت في الموضع الذي ينبغي أن تحذف فيه إلا كان حذفها هناك أحسن وأبلغ من ذكرها ، وكان إضمارها في النفس أولى وآنس من النطق بها .

٢٥) أن نقادنا القدماء لم ينظروا إلى موضوع الحضور أو الذكر بمعزل عن الغياب أو الحذف ، إنما نظروا إلى كلٍّ من طرفي هذه

الثنائية في ضوء علاقته بالآخر واستدعائه له أو تطلبه إياه ، أو ما يحمله من إشارة إليه أو دلالة عليه، دون تكلفٍ أو اعتساف .

٢٦) أن تناول النقاد المحدثين لعلاقات الحضور والغياب دار – في جملته – في فلك القدماء ، واقتفى أثرهم في كثيرٍ من المواضع ، وبخاصة عبد القاهر الجرجاني الذي كان محل إشادةٍ وتقديرٍ من أكثر النقاد المحدثين والمعاصرين الذين تحدثوا عن هذه القضية .

على أن بعضهم قد مال إلى مصطلحي الجوار والاختيار اللذين استخدمهما القدماء ، في حين آثر بعضهم التعبير الحداثي (الحضور والغياب) ، وحاول وضع تصور نقدي وأساس تنظيري لفهم هذه العلاقات ، وطبيعة العلاقة الجدلية بينها ، ودور كل منها وأثره في بنية النص وسياقه .

٢٧) أن كتاب "المثل السائر" لابن الأثير يعد أنموذجًا جيدًا للمصادر الأدبية والنقدية التي ينبغي إعادة قراءتها في حضور خلفية نقدية عصرية، وأن هناك مصادر أخرى : كـ "الوساطة" للقاضي الجرجاني، و"الموازنة" للآمدي، و"الصناعتين" لأبي

هلال العسكري، و"العمدة" لابن رشيق، وغيرها ، في حاجة ملحة إلى مثل هذه القراءة .

٢٨)نظر ابن الأثير إلى المفردة على أنها جزء لا يتجزأ من النظم، واعترف بقيمة وجمال الطرفين معًا.

فأول الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها الأدب عنده إنما هي الألفاظ المفردة ، وحكمها حكم اللآلئ المبددة، فإنها تُتخيّر وتُنتقى قبل النظم، وللمفردة محاسن تضاف إلى محاسن النظم ، ولجرس الألفاظ وقع إيجابي كثيرًا ما يعين الكاتب أو الشاعر على استنفاد إحساسه.

على أن اهتمام ابن الأثير باللفظة المفردة لا يأتي على حساب التركيب أو السياق، فاختيار المفردة ما هو إلا مقدمة لنظمها مع أختها المشاكلة لها، ووضعها في الموضع الذي يتطلبه الموقف والسياق، مع تأكيده أن تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ؛ لأن التركيب أعسر وأشق .

وهذه النظرة الشاملة للفظة والسياق معًا قد تبناها كثير من النقاد المحدثين والمعاصرين .

٢٩) درس ابن الأثير الجملة في إطار النص ، ولم يكن تقليديًّا في دراسته، فعندما درس سياق التقديم والتأخير لم يقف عند النظرة الجزئية التي تتعلق بقضايا الإسناد أو التعلق ، كتقديم الخبر على المبتدأ ، أو تقديم بعض متعلقات الفعل ، إنما تجاوز هذه النظرة إلى رؤى سياقية أوسع، كتقديم السبب على المسبب ، والكثير على القليل ، والأعجب على العجيب.

وقد أثنى بعض النقاد المعاصرين على دراسته للجملة في إطار النص، وعلى نظرته الشاملة لبعض القضايا الأسلوبية، كدراسته لسياق الحذف في إطار سياق أكبر هو سياق الإيجاز، وسياق الذكر في إطار سياق أعم هو سياق الإطناب ، وعدّوا ذلك محاولة جادة يمكن تنميتها في مجال البحث البلاغي الحديث ، وربطه بالدراسة الأسلوبية ، بحيث يصبح الكل له الأهمية الأولى أو المرتبة الأولى بالنسبة للأجزاء، وإن كانت هذه الأولوية لا تلغي الجزء ، ولا توقف تأثيره في السياق.

٣٠) يحسب لابن الأثير في مثله السائر كثرة شواهده وتطبيقاته التي تدل على سعة علمه ، واطلاعه على منظوم الكلام ومنثوره ، وتمكنه من أدوات فنه، مما أسهم في نشاط النقد التطبيقي.

٣١) أن موضوع وحدة القصيدة من أهم قضايا النقد الأدبي التي شغلت النقاد قديمًا وحديثًا ، سواء من جهة ما تطلبه النقاد القدماء من تماسك بناء القصيدة ، ومتانة سبكها ، بجودة المطلع ، وبراعة الاستهلال ، وسلاسة الانتقال ، وحسن الختام ، أم من جهة ما دار بينهم من جدل ونقاش حول مدى الحفاظ على النمط التقليدي المبني على البدء بالغزل أو بكاء الطلل، أو ضرورة التحرر منهما ، على النحو الذي فجرته ثورة أبي نواس في العصر العباسي على النمط التقليدي للقصيدة العربية ، أم من جهة ما تطلبه النقاد المحدثون والمعاصرون من الوحدة العضوية أو الموضوعية أو النفسية ، في ضوء ما دار بين أنصار الوحدة الموضوعية ودعاة الوحدة العضوية من معارك أدبية .

٣٢) وأن هذا الحراك النقدي الواسع قديمًا وحديثًا قد أثرى عملية الإبداع الأدبي والنقدي معًا ، وفتح آفاقًا واسعة أمام الأدباء والنقاد ، مما انعكس بلا شك إيجابًا على آليات بناء القصيدة ، فاتسعت مساحات الإبداع الفني قدر اتساع مساحة هذا الحراك النقدي .

وإني لأرجو أن أكون قد أسهمت في تسليط الضوء على هذا الجانب المشرق من تراثنا الأدبي والنقدي ، ولو بلفت النظر إلى بعض ما يحمله هذا التراث العريق من قيم أدبية وبلاغية ونقديـــة ، مما يمكن أن يكون منطلقًا قويًّا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي تحمل بصمتنا وخصوصيتنا وخصائصنا الثقافية .

فإن كنت قد وفقت فالفضل لله أولاً وآخرًا ، وإن كانت الأخرى فحسبي أني حاولت واجتهدت في أن أسخر قلمي لخدمة لغة القرآن الكريم.

والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمستعان.

* * *

خاتمة رسالة علمية (*)
الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي .. عرض ودراسة وموازنة

تضمن هذا البحث العديد من الأفكار والنتائج التي أثبتُّها وحقَّقتُها مؤيدة بالأدلة في مواضعها من البحث ، ويتلخص أهمها في الآتي :

١. أن الاعتذار لم يكن فنًّا هامشيًّا أو فنا غير أصيل ، فإنه فن قديم قدم الشعر الجاهلي ، نشأ بنشأته ، وارتقى بارتقائه ، وإذا كان بعض الكتاب يذكرون أن امرأ القيس ومهلهل بن ربيعة من أوائل الشعراء الذين سلكوا سبيل الشعر ومهدوا الطريق إليه فإن عمرو بن قميئة ، وعلقمة الفحل معاصري امرئ القيس كانا من رادة فن الاعتذار وأصحاب السبق إليه ، مما يدل على أن هذا الفن نشأ وسار مع غيره من الفنون الشعرية جنبا إلى جنب.

٢. أن الأولية في هذا الفن لا ترجع إلى النابغة الذبياني ، ولا إلى عدي بن زيد كما يرى بعض الكتاب ، وإنما ترجع إلى عمرو بن

(*) رسالتنا للدكتوراه.

قميئة ، فإذا كان عدي والنابغة قد اعتذرا إلى النعمان بن المنذر فإن عمرو بن قميئة قد اعتذر إلى جده النعمان الأكبر المعروف بابن الشقيقة ، وإذا كان النعمان الأصغر الذي اعتذر إليه عدي والنابغة قد تولى إمارة الحيرة في أواخر القرن السادس الميلادي فإن ابن قميئة قد مات في النصف الأول منه.

ولا شك أن عديا والنابغة قد نهضا بهذا الفن نهضة أرست قواعده ، وحددت معالمه ، وعبدت طريقه لمن جاء بعدهما من الشعراء إلا أن فضل السبق يظل مرتبطا بعمرو بن قميئة المتوفى سنة ٥٤٠ هـ.

٣. أن الاعتذار الجاهلي لم يكن قصرًا على النابغة أو على النابغة وعدي بن زيد كما توهم النظرة الأولى في كثير من كتب الأدب وتاريخه ، فقد كثر شعراء الاعتذار في هذا العصر، وتعددت اتجاهاتهم ، وتشعبت مسالكهم ، فهذا يعتذر لدى الملوك ، وهذا يعتذر عن فراره ، وذاك يعتذر عن سواده.

٤. أن الإسلام أضفى جانبا كبيرا من الطمأنينة والتفاؤل على شعراء هذا الفن بعد أن كان الشاعر يعتذر وهو يرتجف ويرتعد

صار يعتذر وهو على أمل في العفو والصفح ، لأن الإسلام دعا إلى ذلك وحث عليه ، وأعد للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس جنة عرضها السماوات والأرض.

كما أضفى هذا العصر على اعتذار المقاتلين والمسلمين لمسة عظيمة ، فخلصه إلى حد كبير من الإعلان عن الجبن والخور ، والحرص على الحياة إلى لوم النفس وتأنيبها على ما يَنِدُّ عنها ، وحقا إننا لا نستطيع أن نجعل لكل إنسان شرطيا أو جنديا يحرسه ، ولكننا نستطيع أن نربي فيه ضميرا حيا ينبض بالحق ، فيتحكم في حركاته وسكناته ، راقبناه أم لم نراقبه ،لأنه يراقب من لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

واختفى من قاموس الاعتذار في هذا العصر سائر الألوان التي تتصل بالعيوب البدنية لأن الإسلام وضع لتلك المشكلة حلولا حاسمة ونهائية ، حين أعلن أن الناس لا يتفاضلون بأشكالهم ولا ألوانهم ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي ، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى.

٥. أن التغير الذي حدث في الحياة السياسية والاجتماعية في العصر

الأموي ألقى بظلاله على هذا الفن ،فبدأت ملامح حزبية تظهر لدى المعتذرين ، كما كان لضعف الوازع الديني عما كان عليه في صدر الإسلام أثر في مداهنة بعض الشعراء للولاة ، مما بدا أثره واضحا في ضعف عاطفتهم ، وظهور التكلف والتصنع في بعض أساليبهم.

٦. أن روح التجديد التي ظهرت واضحة في العصر العباسي قد نبتت جذورها في العصر الأموي ، فإذا كان بعض الشعراء العباسيين قد دعا إلى التحلل من النمط التقليدي الذي يستهل بالوقوف على الأطلال وبكاء الديار ، فإن بعض الشعراء المعتذرين في العصر الأموي قد تحلل من هذا الأمر.

٧. أن القصيدة الاعتذارية استعادت مجدها في العصر العباسي الذي يعد العصر الثاني بعد العصر الجاهلي في هذا الفن ، فقد أسلمت مقادها إلى مجموعة من فحول شعراء هذا العصر من أمثال : البحتري ، وأبي تمام ، وأبي نواس ، وأبي العتاهية ، وعلي بن الجهم، وغيرهم .

٨. أن الثقافة التي نتجت عن امتزاج العرب بغيرهم من الأمم

ووقوفهم على علوم هذه الأمم وحضاراتها بدت ذات أثر واضح في فن الاعتذار في العصر العباسي ، وبخاصة اعتذار المحبين والاعتذار عن الشيب.

٩. أن القصيدة الاعتذارية لم تكن مفككة الأوصال ، وأن الشاعر العربي لم يكن ينظم ما خطر له حسبما اتفق كما يدعي بعض الكتَّاب ، وإنما كانت هناك وحدة فنية ونفسية ، فكانت القصيدة العربية تنهض مجتمعة متشابكة بخدمة الغرض الذي أراده الشاعر.

١٠. أن مقدمة القصيدة الاعتذارية كانت تعكس جانبا كبيرا من الحالة النفسية للشاعر، وتمثل إلى حد كبير شعوره الحقيقي تجاه موضوع القصيدة.

وأخيرًا وبعد هذه الدراسة المتأنية لفن الاعتذار فإني أقرر وباطمئنان أن الدراسة الأدبية والنقدية ليست بالأمر الهين ولا اليسير ، وأن الناقد لابد أن يكون مسلحا بأدوات كثيرة ، وأن العلم بالتاريخ ، والوقائع ، والأيام ، والأنساب يأتي في مقدمة العلم أو الأدوات التي ينبغي أن يتحصن بها ، لأن بعض الأشعار لا تكاد

تفهم إلا في ضوء هذه العلوم على نحو ما بينت في الحديث عن اعتذار أبي تمام لابن أبي دؤاد ، كما أن بعض الأشعار لا تكاد تتحقق نسبتها إلى أصحابها إلا بالوقوف على الحقائق التاريخية على نحو ما بينت في الحديث عن اعتذار عبد الله بن مطيع القرشي عن فراره يوم الحرة.

وإني إذ أقدم هذه الدراسة المتواضعة أقدر أنها جهد المقل ، وأرجو أن تكون خطوة على الطريق ، وأن أكون قد وفقت إلى إضافة لبنة جديدة إلى ذلكم الصرح الأدبي الشامخ ، وأن تكون هذه الدراسة بداية لدراسات أخرى متخصصة تضيف إلى هذا الفن الذي لا يزال متسعًا للعديد من الدراسات الأدبية والنقدية .

وإني لأرفع أكف الضراعة إلى العلي القدير أن يتقبل هذا العمل وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن يجزي عنى أساتذتي ، وإخواني ، وكل من مد لي يد العون خير الجزاء ،إنه على ما يشاء قدير.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب للعالمين .

خلاصات تعريفية لبعض إصدارات سلسلة "رؤية".

خلاصة تعريفية لكتاب : حماية الكنائس في الإسلام (*)

يبرز هذا الكتاب أن الإيمان بالتنوع سنة من سنن الله الكونية ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}(هود : ١١٨-١١٩) ، فلا إكراه في الدين ولا على الدين ، حيث يقول سبحانه وتعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} (البقرة : ٢٥٦).

ويعمل على ترسيخ فقه العيش المشترك وأسس المواطنة المتكافئة دون تمييز بين أبناء الوطن الواحد على أساس الدين أو اللغة أو الجنس أو العرق ، فالوطن لجميع أبنائه وهو بهم جميعًا.

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده : أ.د/ شوقي علام مفتي الديار المصرية ، وأ.د/ محمد نبيل غنايم أستاذ الشريعة الإسلامية المتفرغ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، وأ.د/ عبد الحليم منصور عميد كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر بتفهنا الأشراف الدقهلية ، ود/ مجدي عاشور المستشار العلمي لمفتي الجمهورية، ود/ هاني سيد تمام أستاذ الفقه المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة .

ويفند بالحجة والبرهان شبه المبطلين ، ويصحح كثيرًا من الخاطئة ، سواء أكانت هذه المفاهيم ناتجة عن سوء قصد أم سوء فهم.

خلاصة تعريفية لكتابنا :
فهم مقاصد السنة النبوية .. رؤية عصرية

يهدف هذا الكتاب إلى إلقاء الضوء على أهمية فهم المقاصد الكلية للتشريع بصفة عامة ، وضرورة فهم مقاصد السنة النبوية بصفة خاصة ، وفهم مقاصد كل نص أو مجموعة نصوص مترابطة في ضوء غاياتها العليا مع ضرورة مراعاة ظروف الزمان والمكان وأحوال الناس وأعرافهم وعاداتهم عند قراءة النص وفهم معانيه أو استنباط بعض الأحكام الجزئية منه.

ويقدم الكتاب قراءة عصرية لنماذج مختارة من السنة النبوية المشرفة ، بما يؤكد أننا في حاجة ملحة إلى قراءات جديدة لمعظم نصوص السنة النبوية المشرفة المطهرة في ضوء واقعنا المعاصر الراهن ومستجداته.

كما يلقي الضوء على عدد من القضايا المهمة ، مثل : دفع الهلاك

ودفع المشقة عن الناس ، والعمل في إطار المتيسر لا المتعذر ، ومفهوم درء الحدود بالشبهات ، وحدود الترويح المباح عن النفس، وغير ذلك من الموضوعات الحياتية المتجددة .

خلاصة تعريفية لكتابنا : ما الفقه؟

يبين هذا الكتاب أن الفقه علم ذو طبيعة خاصة ، وأنه صناعة ثقيلة لا يصلح لها الهواة ولا غير المؤهلين ، وأنه يحتاج إلى إعداد خاص لصقل شخصية المفتي أو الفقيه.

ويؤكد أن الدين قائم على السماحة واليسر ، فالفقه هو التيسير بدليل ، مع فهم الواقع والمقاصد والأولويات ، وإعمال العقل في فهم صحيح النص ، وهو القدرة على التجديد المنضبط بضوابط الشرع.

ويحذر الكتاب من أدلجة الفقهاء والمفتين ، ويفرق بوضوح بين الخلاف الفقهي والخلاف السياسي ، فاختلاف العلماء سعة ، والخروج بالخلاف من الديني أو الفقهي إلى التوظيف السياسي أو الحزبي للفقه أو الفتوى مهلكة للدين والدنيا معًا.

خلاصة تعريفية لكتابنا :
الأدب مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

يبين الكتاب أن حب الرسول (صلى الله عليه وسلم) جزء لا يتجزأ من عقيدتنا ، وأنه شرط من شروط صحة الإيمان ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ، ووالده ، والناس أجمعين"

كما يبين أن الأدب مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقتضي عدم ذكر اسمه (صلى الله عليه وسلم) مجردًا عما يليق به من الوصف بالنبوة أو الرسالة أو الصلاة والسلام عليه ، سواء عند ذكره (صلى الله عليه وسلم) أو عند سماع اسمه (عليه الصلاة والسلام) أو كتابة اسمه المبارك (صلى الله عليه وسلم) ، بالغًا ما بلغ عدد مرات الكتابة أو الذكر.

ويبرز فضائل الصلاة والسلام عليه (صلى الله عليه وسلم) ، فهي سبيل رحمة الله (عز وجل) وعميم فضله ، وبها ترفع الدرجات، وتكفر الذنوب والسيئات ، وتُنال الشفاعة ، وتُكفى الهموم ، وتطمئن القلوب.

خلاصة تعريفية لكتاب :

فقه النوازل كورونا المستجد أنموذجا (*)

يُعــدُّ هذا الكتاب تأصيلًا علميًّا وفقهيًّا لفقه النوازل والمستجدات ، ويتناول قضايا في غاية الأهمية مثل: الحجر الصحي، والعزل المنزلي ، وأداء العبادات والشعائر في زمن النوازل والجوائح، ويجيب على كثير من الأسئلة الشائكة في بابه.

ويؤكد عدم التناقض بين الإيمان والعلم ، ويبرز حاجتنا إلى الدعاء والدواء معًا، فليس أحدهما بديلًا عن الآخر ولا نقيضًا له.

ويبرز العلاقة بين القواعد الفقهية والأصولية والمستجدات العصرية ، من خلال إعمال العقل في فهم صحيح النص ، وحُسن قراءة الواقع ، وإسقاط حكم النص على مناطه من الواقع.

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من: أ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر ، وأ.د/ عبد الله مبروك النجار العميد الأسبق لكلية الدراسات العليا بجامعة الأزهر، ود/ أشرف فهمي موسى القائم بتسيير أعمال الإدارة العامة للتدريب ، ود/ خالد السيد غانم القائم بتسيير أعمال الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة الأسبق ، مع مشاركتنا وتقديمنا له.

كما يوضح الكتاب خطورة التدين المبني على الجهل أو الهوى، وخطورة الجمود عند ظواهر بعض النصوص دون فهم مقاصدها، وما يقتضيه فقه الواقع ، وفقه المتاح ، وفقه الموازنات ، وترتيب الأولويات.

خلاصة تعريفية لكتابنا :
هويتنا الواقية في زمن العولمة

يبين الكتاب أن قضية الهوية والحفاظ عليها ليست أمرًا ثانويًّا أو هامشيًّا في حياة الأفراد والدول ، بل هي أمر حيوي وديناميكي ، ويكفي وصمًا لشخص ما أن يقال عنه : إنه بلا هوية ، ولأمة ما أن يقال عنها : إنها أمة بلا هوية ، كما يناقش أهم روافد هذه الهوية وعوامل بنائها وتشكيلها.

ويبرز العلاقة الطردية بين الهوية والانتماء ، فتجذر الهوية يعني تجذر الانتماء ، وهشاشة الهوية تعني هشاشة الانتماء ، كما يبرز العلاقة بين الهوية وبناء الصورة الذهنية للشعوب والأمم ، من خلال مدى تمسكها بإرثها الحضاري وانتمائها الوطني واستعدادها للحفاظ عليه والعمل على تقدمه ، والتضحية في سبيله ، أو مدى تفريطها فيه وتقاعسها عن حمايته والعمل على نهضته ورقيه.

ويؤكد أن هناك من يريدون لأمتنا أن تكون مسخًا أو طمسًا بلا هوية ، بلا معالم ، بلا لون أو طعم أو رائحة ، يريدون لها أن تذوب في هويات أخرى ، كي تسهل السيطرة عليها وعلى مقدراتها.

وينبه إلى ضرورة اليقظة والمقاومة لكل محاولات التذويب ، والعمل الجاد على تقوية مناعتنا الحضارية في مواجهة موجات التجريف العاتية.

خلاصة تعريفية لكتابنا : بناة وهدامون .

هذا الكتاب يبين أن العلم النافع يشمل كل ما ينفع الناس في شئون دينهم ودنياهم ، ويفرق بين العلم الكسبي والعلم الكشفي ، كما يفرق بين العلم المطلق والعلم النسبي ، ويؤكد أن رسالة العلماء الحقيقيين هي البناء والتعمير ، وبيان صحيح الدين ، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

كما يهدف إلى كشف علماء الفتنة من أبناء الجماعات الضالة الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون به ثمنًا قليلًا ، ويفضح أساليبهم في بث الأكاذيب والشائعات ، وإثارة الفتن ، وهدم الأوطان ، واستباحة الدماء ، وتدمير الحضارات ، وحرق الأخضر

واليابس ، مما يجعل من دحض هذه الأفكار المدمرة واجب الوقت دينيًّا ووطنيًّا وإنسانيًّا.

ويؤكد أن الباني الحقيقي لا يمكن أن يكـون هدَّامًـا ؛ لأنه صاحب نفس ملأى بالخير والإنسانية والقيم النبيلة ، فمن يبني لا يحسن أن يهدم ، وتلك رسالة العلماء المصلحين ، أما جماعات الفتنة والضلال فلا تعرف سوى الهدم والتدمير ؛ لأنها لا تقوم ولا تحيا ولا تعيش إلا على أنقاض الدول ، بل على الخيانة والهدم.

خلاصة تعريفية لكتاب:

مفاهيم يجب أن تصحح في مواجهة التطرف (*)

يصحح هذا الكتاب كثيرًا من المفاهيم الخاطئة التي اتخذها أصحاب الأفكار المتطرفة ذريعة لتبرير أعمالهم الإجرامية المنكرة ، ويناقش بالحجة والبرهان هذه المفاهيم المغلوطة ويفندها ، ومنها: التكفير ، والحاكمية ، والجهاد ، والمواطنة ، والإرهاب ، والجزية ، ودار الحرب ، والعلاقة بين الدين والدولة ، ونظام الحكم ، والمتاجرة بقضية الخلافة.

(*) هذا الكتاب من إعداد : أ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر، وأ.د/ عبد الله مبروك النجار العميد الأسبق لكلية الدراسات العليا بجامعة الأزهر ، مع مشاركتنا وتقديمنا له.

ويؤكد الكتاب على مشروعية الدولة الوطنية ، وبيان أن مصالح الأوطان لا تنفك عن مقاصد الأديان ، وأن الإرهاب لا دين له ولا خلق ولا قيم ، ولا عهد له ولا ذمة ؛ مما يتطلب اصطفافًا وطنيًّا ودوليًّا لمواجهته ، وتخليص الإنسانية من شروره وآثامه.

ويؤكد أننا بحاجة ماسة إلى العمل بقوة على بناء الشخصية الوطنية بكل أبعادها الإيمانية والأخلاقية ، وبما يرسخ للقيم الإنسانية الراقية النبيلة .

خلاصة تعريفية لكتاب : قواعد الفقه الكلية (*)

يهدف هذا الكتاب إلى بيان أثر فهم قواعد الفقه الكلية في نقل دارسي العلوم الشرعية من دوائر الحفظ والتلقين إلى مناهج الفهم والتفكير ، وفتح آفاق التجديد من خلال رفع القداسة عن غير

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من: أ.د/ شوقي علام مفتي الجمهورية ، وأ.د/ محمد عبد الستار الجبالي رئيس قسم الفقه بكلية الدراسات العليا، وأ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر، وأ.د/ رمضان محمد عيد هتيمي عميد كلية الشريعة والقانون الأسبق بجامعة الأزهر ، ود/ هاني سيد تمام أستاذ الفقه المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، ود/ ياسر أحمد مرسي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة ، مع مشاركتنا وتقديمنا له .

المقدس من الأشخاص والآراء البشرية ، وقصر التقديس على الذات الإلهية وعلى كتاب الله (عز وجل) ، وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم).

كما يهدف إلى بيان أن الأحكام الفقهية الجزئية المستنبطة باجتهاد المجتهدين في قراءة النصوص ليست قرآنًا ، وأن بعضها قابل للتغير وفق مقتضيات الزمان والمكان والأحوال والأشخاص .

كما أن الجزئيات لا تكاد تنحصر لكثرة ما يستجد منها ، مما يتطلب التعمق في دراسة مفاتيح العلم وأدوات الاجتهاد والفهم من خلال دراسة : علم أصول الفقه ، وقواعد الفقه الكلية ، وفقه المقاصد ، وفقه الأولويات ، وفقه الواقع ، للتعامل مع كل الجزئيات المستجدة والمستحدثة برؤية عصرية مستنيرة واعية .

خلاصة تعريفية لكتاب :

خطورة التكفير والفتوى بدون علم (*)

يؤكد هذا الكتاب أن الإسلام دين يكفل حرية الاعتقاد :

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من: أ.د/ محمد إبراهيم الحفناوي أستاذ أصول الفقه المتفرغ بكلية الشريعة والقانون بطنطا ، وأ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر ، وأ.د/ مصطفى محمد عرجاوي عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات جامعة الأزهر، وأ.د/ بكر زكي عوض عميد كلية أصول الدين السابق بالقاهرة ، وأ.د/ عبد الله مبروك النجار عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر، وأ.د/ سيف رجب قزامل عميد كلية الشريعة والقانون الأسبق بطنطا .

فـ "لا إكراه في الدين"، وأنه يسوي بين الناس في المواطنة والحقوق والواجبات على اختلاف معتقداتهم دون تمييز ، وأن عماده العدل والرحمة وصيانة القيم والدفاع عنها ، وقبول التنوع واعتباره سرًّا من أسرار عمارة الكون.

ويبين أن الإسلام دين يحترم العقل أداة للفكر الصحيح ، وأنه بريء مما يرتكبه بعض المنتسبين إليه من التكفير ، أو الفتوى بدون علم ، وأنه لا يصح أن يحتج على الإسلام بأخطاء بعض المنتسبين إليه ، ولا بسوء فهمهم له ، أو انحرافهم عن منهجه ، كما لا يصح أن يحتج على الأديان الأخرى بأخطاء بعض المنتسبين إليها.

ويوضح أن الفتوى بغير علم إثمٌ عظيمٌ ومفسدةٌ كبيرةٌ ، وأن من تجرأ على الفتوى بغير علم فأصاب فعليه وزر ، فإن أخطأ فعليه وزران : وزر لخطئه وآخر لجرأته على الفتوى.

خلاصة تعريفية لكتابنا :
الكمال والجمال في القرآن الكريم

يبرز هذا الكتاب بعض وجوه الكمال والجمال المعنوي في القرآن الكريم ، من خلال حديثه عن الصبر الجميل ، والصفح الجميل ،

والسراح الجميل ، والهجر الجميل، والسعي الجميل ، والعطاء الجميل ، واللباس الجميل ، والكلمة الجميلة ، والتحية الجميلة ، والخاتمة السعيدة.

كما يبرز بعض مواطن الكمال والجمال اللغوي في استخدام المفردة اللغوية التي لا يسد مسدها سواها ، لا من المترادفات عند القدماء ولا من حقول الاستبدال الرأسي أو الأفقي عند المُحْدَثين ، ويقف على بعض مواطن الكمال والجمال في الجمل والتراكيب الأسلوبية ، مبينًا أن ما حذف لا يصلح مكانه الذكر ، وما ذكر لا يصلح مكانه الحذف.

وعلى الجملة فهو أصدق الحديث وأجمله ، وأحسن الكلام وأعذبه ، وأفصحه وأبلغه ، " وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلًا " ، " وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثًا ".

خلاصة تعريفية لكتابنا :
مهارات التواصل في السنة النبوية

يتناول هذا الكتاب أهم وسائل وأساليب التواصل في السنة النبوية المشرفة ، ويبرز بعض الجوانب الإنسانية في حياة رسولنا

الكريم (صلى الله عليه وسلم)، ويبين أن الدعوة بالقدوة والحال أبين وأجل وأوضح وأكثر تأثيرًا من الدعوة بالمقال ، فحال رجل في ألف رجل خير من كلام ألف رجل في رجل.

ويؤكد أن رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة على أكمل وجه بذل وسعه في سبيل البلاغ المبين، مستخدمًا سائر مهارات وأساليب ووسائل التواصل الدعوي والإنساني في أرقى صورها.

ويبين ضرورة الاقتداء بنبينا (صلى الله عليه وسلم) في ذلك، وأن نتسلح بكل مهارات التواصل الحديثة والعصرية في سبيل أداء مهامنا الإصلاحية والدعوية المستنيرة، وأن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، ميسرين لا معسرين ولا منفرين.

خلاصة تعريفية لكتابنا :
الجذور التراثية للنقد الأدبي

هذا الكتاب يؤرخ لمسيرة النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، ويُبرز أهم الملامح والرؤى النقدية في كل عصر من هذه العصور؛ بمقاييس تلك العصور لا بمقاييس غيرها.

ويؤكد أن العقلية العربية لم تكن أبدًا عقلية جامدة، بل كانت عقلية واعية فطنة وناضجة، فهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان، وإن اقتضت طبيعة حياتهم الأولى أن يكون نقدهم فطريًّا ذاتيًّا.

ويُبين أن النقد شأن سائر العلوم والفنون التي تتطور عبر الزمن ليُبْنَى لاحقها على سابقها حتى تستوي فنًّا مكتمل الأركان شأن سائر نظريات التطور والارتقاء.

ويُوَضح أن تلك الجذور التراثية لنقدنا الأدبي العربي قد شكَّلت منطلقًا ومرتكزًا قويًّا لنظريات النقد الأدبي العربي في عصوره المختلفة وصولًا إلى العصر الحاضر.

خلاصة تعريفية لكتابنا : الكليات الست

يبين هذا الكتاب أن عدد الكليات وترتيبها إنما هو نتاج رؤية العلماء والمجتهدين لما يجب الحفاظ عليه باعتباره أمرًا ضروريًّا ، وأن الأمر متسع للاجتهاد في عددها وترتيبها كونهما اجتهادًا بشريًا ، وليس قرآنًا ولا سنة.

كما يهدف إلى بيان أن الحفاظ على الوطن لا يقل أهمية عما ذكره العلماء من الكليات الأخرى ؛ إذ لا يوجد وطني شريف لا يكون على استعداد لأن يفتدي وطنه بنفسه وماله.

ويؤكد أن الحفاظ على الدين مقصوده الأسمى الحفاظ على أصل الدين ومقاصده ، أما عند التفصيل فقد يتقدم حفظ النفس على التمسك ببعض الجزيئات ، فللإنسان المضطر أن يأكل من الميتة المحرمة شرعًا ما يحفظ به أصل النفس.

ويوضح الكتاب أن الشرع الحنيف قد أحاط الدين والنفس والعقل والمال والنسل والعرض والنسب بسياجات من الصيانة والحفظ ، تحفظ للإنسانية حرمتها وكرامتها ، وتضبط مسارات حركتها بضوابط محكمة لا تمييز فيها ولا إقصاء.

خلاصة تعريفية لكتاب :
نعمة الماء.. نحو استخدام رشيد للمياه (*)

يقدم هذا الكتاب تأصيلًا علميًّا شرعيًّا لضوابط استخدام المياه وبيان أهميتها، وأثرها في بناء الحضارات، وضرورة الحفاظ عليها

(*) هذا الكتاب شارك في إعداده كلٌّ من: أ.د/ محمد سالم أبو عاصي عميد كلية الدراسات العليا الأسبق بجامعة الأزهر، ود/ هاني سيد تمام أستاذ الفقه المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، د/ ياسر أحمد مرسي أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين بالقاهرة ، د/ أيمن علي أبو عمر القائم بتسيير أعمال الإدارة المركزية لشئون الدعوة بوزارة الأوقاف.

من خلال: ترشيد استهلاكها، وعدم الاعتداء عليها، أو الإسراف فيها.

ويتناول الكتاب حديث القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عن الماء، وجانبًا مهمًّا من حديث الفقهاء عنه، وفيه تأكيد واضح على أن كل نقطة ماء تساوي حياة، كما أنها تساوي مالًا متقومًا، وأن فقدها أو إهدارها يعني إهدارًا لمقدرات مهمة يجب الحفاظ عليها.

ويضم الكتاب ملحقًا فنيًّا إرشاديًّا عن السلوكيات السلبية التي يجب اجتنابها، والسلوكيات الإيجابية التي ينبغي اتباعها في التعامل مع الماء، بغية الوصول إلى ثقافة مجتمعية رشيدة في ذلك.

خلاصة تعريفية لكتاب :
مخاطر الإلحاد وسبل المواجهة (*)

يهدف هذا الكتاب إلى بيان مخاطر الإلحاد المسيس أو الموجه الممول ، قصد الإتيان على مجتمعاتنا من داخلها وتفتيتها بأيدي بعض أبنائها.

(*) هذا الكتاب من إعداد : الإدارة المركزية للسيرة والسنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ويفرق بين حرية المعتقد والاستهداف السياسي تحت مسمى حرية الاختيار ، فحرية المعتقد مكفولة ، والاستهداف الموجه قصد إثارة الفوضى وإسقاط الدول أو إضعافها من الداخل أمر لا يمكن أن يقبله أحد.

كما يقدم الكتاب حلولًا لمواجهة الفكر الإلحادي ومعالجة أسبابه وتفنيد شبه الملحدين ، مع إبراز أهمية التدين الصحيح الخالص لوجه الله تعالى ، وليس التدين الشكلي أو السياسي الصاد عن دين الله .

ويتناول الطرق الوقائية والعلاجية للإلحاد ، ودور المؤسسات الدينية والتعليمية والثقافية والمجتمعية في التوعية بمخاطره وتحصين مجتمعاتنا منه .

خلاصة تعريفية لكتابنا :
في رحاب فن المقال

ويؤكد هذا الكتاب أن فن المقال هو فن الفكرة المركزة، واللمحة العابرة ، والكلمة المنتقاة ، وهو من أهم ما يميز صحيفة على أخرى، ويعطي لهذه ميزة على تلك ، فالمقال ليس مجرد هواية أو

فكرة عابرة ؛ إنما هو علم وفن كسائر العلوم والفنون، يظل فيه المتخصص متخصصًا ، والمبدع مبدعًا ، والمثقف مثقفًا ، والمفكر مفكرًا، والهواة هواة.

ولا شك أن في نفس كل إنسان منا أسئلة يراها مشروعة، وأخرى يراها ممنوعة ، أو يتوجس أن تكون ممنوعة ، أو يطوي عليها نفسه ولو بشق الأنفس ، غير أن هذا المنع ليس شرطًا في كل الأحوال أن يكون ناتجًا عن عوامل خارجية ، فقد يكون المنع ذاتيًّا ناتجًا عن شدة الإحساس بالمسئولية ، أو الالتزام الأدبي أو الاجتماعي، وفي فنون المقال متسع كبير لما تحمله النفوس ، أو تكنه الضمائر مباشرة، أو تلميحًا، أو إسقاطًا ، عرضًا أو تحليلًا أو نقدًا.

* * *

فهرس الموضوعات

م	الكتاب	ملاحظات
١.	المقـدمـة .	٥
٢.	تـوطئـة: أهمية المقدمات والخواتيم .	٧
٣.	المبحث الأول : مقدمات سلسلة "رؤية" .	١٣
٤.	الجاهلية والصحوة .	١٤
٥.	العقل والنص.	٢١
٦.	فقه الدولة وفقه الجماعة .	٢٦
٧.	الكليات الست .	٣٢
٨.	بناء الوعي .	٣٦
٩.	قواعد الفقه الكلية .	٤٠
١٠.	فقه بناء الدول .	٤٨
١١.	تنظيم النسل ومتغيرات العصر .	٥٥
١٢.	نعمة الماء .	٦١

م	الكتاب	ملاحظات
١٣.	الحوار الثقافي بين الشرق والغرب .	٦٤
١٤.	المبحث الثاني : مقـــدمـــات أخـــر .	٧١
١٥.	بناة وهدامون .	٧٢
١٦.	فقه السيرة النبوية قراءة جديدة .	٨٠
١٧.	مسيرة النقد الأدبي وقضاياه .	١٠٨
١٨.	مقدمة رسالتنا للدكتوراه : "الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي .. عرض ودراسة وموازنة"	١١٨
١٩.	المبحث الثالث : خواتيـــم وخـــلاصـــات .	١٣١
٢٠.	مسيرة النقد الأدبي وقضاياه .	١٣٣
٢١.	خاتمة رسالتنا للدكتوراه : "الاعتذاريات في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي.. عرض ودراسة وموازنة"	١٤٩

م	الكتاب	ملاحظات
٢٢.	خلاصات تعريفية لبعض إصدارات سلسلة "رؤية" .	١٥٥
٢٣.	فهرس الموضوعات .	١٧٣

* * *

الناشر / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الترقيم الدولى :

رقم الإيداع :